فتحى خطاب

دور مصر

حديث هادىء مع التاريخ



دور مصر..
حديث هادئ مع التاريخ

الإشراف الفنى : عصام حنفى

دور مصر..
حديث هادئ مع التاريخ

فتحى خطاب

إهداء..

إلى مصر.. المسكونة بروح التاريخ،

وعبقرية المكان

فتحى

ملاحظة

هذا الكتاب ليس دفاعا عن مصر ودورها، ولسبب بسيط وهو أن مصر المسكونة بروح التاريخ وعبقرية المكان،كانت دائما كيانا بالغ الخصوصية، وأكبر وأعلى شأنا من أن تكون فى موضع البحث عن أو الرهان على دورها، وهو أشبه ما يكون بالقدر المكتوب عليها..

هذا الكتاب محاولة - مجرد محاولة - للرد على تنبؤات أو توقعات الذين يتحدثون عن دور مصر برؤية مسطحة للتاريخ وللحركة التاريخية، ويدفعون أمامهم باحتمالات التهميش أو التحجيم وتقليص قدرة الدور وفقا لأحكام المستجدات والمتغيرات الإقليمية والدولية، وهم يتصورون أن هذه المتغيرات سوف تفرض تقسيمات جديدة للأدوار وفاعليتها وحركتها فى المستقبل القريب!! أو الذين يتحدثون بما هو أقرب إلى لغة التشاؤم سياسيا وتاريخيا بأن دور مصر يواجه عوامل وعناصر الترهل والتآكل!! وهناك داخل إقليمنا العربى من يتحدث بلغة الشاعر - عتابا أو حسرة - بأن دور مصر لم يعد كما كان فاعلا ونافذا ومؤثرا، وبمعنى أن ما كان لم يعد كما كان!!

وفى نفس الوقت فإن هذا الكتاب محاولة أقرب إلى الرحلة السريعة مع وقائع وأحداث وأحكام التاريخ فوق جغرافية لا يمكن للعالم أن يستغنى عنها.. وهذه الالتفاتة أراها ضرورية للاقتراب من مفهوم الدور بمعناه الأشمل، وحدود ومحيط حركته، خاصة وأن التاريخ حىّ فى الحاضر ومؤثر فى المستقبل.. ولا أتصور أن أحدا ينكر أن تاريخنا القديم ومواريثه الثقافية والحضارية سارية فى أعماقنا..

فتحى خطاب

مدخل

ما بين منتصف صيف ١٩٩٠ (غزو العراق للكويت) وبداية ربيع ٢٠٠٣ (الغزو الأنجلو أمريكى للعراق) لم تهدأ الرياح الساخنة فوق المنطقة العربية، التى هبت عليها عواصف وضربتها الصواعق وسط أصداء هدير الرعد وسياط البرق.. وكان الجميع - بلا استثناء - يبحث عن حركة الدور المصرى، ثم راح الرهان يتزايد داخل المنطقة وخارجها على هذا الدور.. ويستوى الدليل والظن هنا!!

ولعله كان قصدا من بعض الأطراف وخطأ من بعضهم الآخر، أن يتصور أن هذا الدور قد تراجع أو تم تعطيله، وأن ذلك كله والنتائج التى ترتبت عليه، لم يؤد فقط إلى ترهل النظام العربى والذى لم يعد قادرا على أن يصلب عوده ويقف، ولكن قد ساهم هذا الغياب والتراجع فى تسهيل اختراق الأمن القومى العربى، وأن تجرى عمليات الإحلال والتبديل، وأن تطرح أفكارا لإعادة ترتيب الأوضاع فى المنطقة، وبعض هذه الأفكار وجدت طريقها للتنفيذ على أرض الواقع ولو بالسطو المسلح!!

ثم صال وجال كثيرون يدفعون أمامهم بمقولة أن دور مصر فقد أهميته فى مناخ عاصف.. أو أن هذا الدور خف تأثيره بمقدار ما خفت قوته!!

ولأن الصراع على الشرق الأوسط وفيه مازال مستمرا، فإن الحديث عن دور مصر مازال مستمرا أيضا..

والسؤال: هل تراجع دور مصر؟! أو هل فقد أهميته؟! أو هل

يتم تعطيله؟!

في حقيقة الأمر فإن هذا السؤال - وبأكثر من صيغة - كان يلح على الكثيرين وقبل صيف ١٩٩٠ وما بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، ومع كل ممارسات البطش والعدوان وصب النيران الإسرائيلية على الشعب الفلسطيني داخل الأراضي المحتلة.. ولكن السؤال - وفي جانب كبير منه - كان قاصرا على الجانب السياسي في حركة الدور المصري.. اقتصر على حركة الجهد السياسي والدبلوماسي.. وأي جهد أو تحرك سياسي هو رهن تقدير المواقف، وحسابات علاقات وموازين قوى إقليمية ودولية، وقبل كل هذا فإنه قد يعكس - غالبا - تباينا وتضاربا في الرؤى حين يكون مجال الحركة أمامه محصورا بين الحيرة والارتباك، وفي هذه الحالة فإن بعض دواعي الخطأ في المواقف، أو قصور في الفكر والفعل السياسي يمكن تصوره!! كما أن هذه الحركة السياسية - في أحيان كثيرة - قد تحمل وعودا ومواقف غامضة مبهمة تحتمل كل معنى وكل تأويل.. فضلا عن أن الجهد السياسي قد يستند إلى "دبلوماسية الشيكات" لتسجيل نقاط لحساب دولة أو أخرى (دول نفطية غنية بالموارد) أو يدار بالضغوط الاقتصادية وإغراءات المساعدات والمنح من الدول الكبرى!!

وقد يرى البعض أن التحرك السياسي لإدارة الأزمات يمثل أحد أبرز أدوات وآليات حركة الدور - أي دور - وهذا صحيح.. ولكنه في نفس الوقت لا يمثل المعيار الوحيد للحكم على دور دولة ما.. هناك بالضرورة جوانب كثيرة في دائرة الدور بمعناه الأشمل والأوسع.. وكان دور مصر - مثلا - في التنوير والتحديث داخل أمتها العربية، فاعلا ومؤثرا وخالقا.. وكانت مصر مجمع كل المطالبين بالحرية والباحثين عن المعرفة والعلم، وقد شكلت الثقافة المصرية - من إبداعات الأدباء والشعراء والمفكرين والفنانين - وجدان الشعوب العربية، أو على الأقل فتحت أمامها آفاقا للمعرفة.. وكان هذا جانبا من دور مصر.

لا ينكر أحـــد ـ ولا يحق له أن ينكر ـ أن هنــاك دورات صــعــود وهبوط للدور.. أى دور.. وهو يرتبط بالضــرورة بدورة التاريخ بين قرون نضـج وحضـارة، وقـرون انهيار وتخلف، ولكن هذا لا يعنى أن الدور فى حالة غياب كامل، وهذا لا يـحدث إلا فى حالة غياب الدولة ـ أى دولة ـ بأكملها عن الوجود!! ويتـداعى إلى فكرى تشبيه طريف ـ ذات معنى وذات مغزى ـ لأحد المفكريـن.. يقول: حين تكون صـحة مصــر النفســية ليست على مــا يرام فإن حـركة دور مصــر تصاب بالخلل.. وقد لفت هذا القــول نظر كثيـرين وهم يرون أن المناخ العام فى مصر جـعلها لا تنتبه لوجودها ـ وهو من الأصول المهـمة للغاية فى منظومة العلاقات الدولية ـ ولا تنتـبه لدورها ـ وهو أشبه بالقدر المكتوب عليـها ـ وأصبحت مـشفقة على نفـسها من مسئـوليات هذا الدور!!و هناك أيضا مـؤثرات سلبية تثقل على حـركة الدور المصرى فى مـحيطة العـربى، ولكن لا تعطله، ومنهــا أن الوطن العربى فــوق براكين مكتــومة لا يوحى ظاهرها بما هو مـحبـوس فى باطنها، وأن الأمة أصــبحت منقســمة بالفكر والفــعل على نفسهــا وفى ظل أجواء مزدحمــة بالشك، ومشحونــة أحيانا كثيــرة بنيران التوتر، ومـعرضة طول الوقت للمفاجآت!!

وما يعنينى هنــا ليست الأجواء التى أثقلت على حـركة الدور ولا المناخ العام الذى لم يتنـبه لأهمية هذا الدور ومـسئوليـاته.. ولكن ما يعنينى هو الخلط الشـديد من الذين يتحـدثون عن دور مصــر برؤية قاصــرة للتــاريخ، ويدفعـون بنظرية أن للدور "قانون" يحـدث أثره كلمــا توافرت شــروطه!؟ إذن.. هم يتـحدثـون عن أدوار مرحليــة أو موســمية ترتبط بحـركة الأحداث ومـتغيـراتها، وتخـضع بالضرورة لتـقلبات الزمن!! دور ـ مـثـلا ـ له هدف تفرضــه تطلعــات ومطامع الدول.. ودور ـ مثـلا ـ أقرب لوظيـفة أو مهـمة يضطلع بهــا النظام الحـاكم خــلال حقبة زمنيــة مع توافر الشروط والأجواء المناسـبة، ثم حــين تخـتـلف الظروف والأجـواء مع حـركـة الزمـن فــإن العـمــر

الافتراضى لهذا الدور ينتهى كما انتهى دور الإمبراطوريات العظمى حين لملمت أطرافها، وسحبت قواعدها الخارجية ولعقت جراحها، وانحشرت قواها المترهلة داخل حدودها.. وهذه الرؤية تجاهلت تماما الاقتراب من مفهوم الدور. "ماهية الدور" وحدوده ومحيط حركته..

□□□□

تمهيد..
قراءة في عمر التاريخ

"ما من علي لدينا إلا وقد أخذناه عن مصر"

افلاطون في كتابه القوانين

مصر ومنذ بدايات عمر التاريخ لم تكن فقط مجرد دولة ترتكز على دور.. أو أنها دولة ترتكز على موقع.. ولكنها كانت محور الارتكاز بين ذراعى القوة.. الدور والموقع.. وأدركت مصر - منذ بدايات ما قبل التاريخ - أن لها دور. وبالتحديد أن هناك دورا خلقت له أو خلق لها - لا فرق - وأن لهذا الدور موقعا متفردا، أو أن لهذا الموقع دورا متفردا - لا فرق - ولذلك شهدت مصر أول تقنين فى التاريخ الإنسانى للحدود والتخوم، ووضع تدابير الأمن لسلامتها، فكان لملوك مصر قبل أربعة آلاف عام ثلاث عشرة قلعة لحماية الحدود الجنوبية، وقلاع وحصون ومواقع حراسة على الجبهة الشرقية.

وترسيم الحدود فى هذا الزمن ومع بدايات عمر التاريخ - كان لتأكيد سيادة مصر على أراضيها، وضمان سلامتها، وتنظيم حركة المرور بمراقبة الداخلين والخارجين لدولة تمتعت بالنفوذ السياسى وبالمركز التجارى والثقافى.. وفى كل هذا كان واضحا ترسيم جغرافية "الدور" المصرى داخليا وخارجيا وفى منظومة واحدة تشير إليها - على سبيل المثال - القواعد المتقدمة للاستطلاع وحماية الأمن القومى، فكان لمصر فى أقصى الجنوب عند الشلال الثانى والشلال الرابع رجال يرقبون مناسيب المياه على الصخور وإبلاغ ولى الأمر بما يرون من حال فيضان النيل واستقرار الأحوال عند المنبع حتى يتخذ ما يضمن الإنتاج الأكبر وتجنيب البلاد ما قد تتعرض له من أخطار. ومثلا حرص المصريون ومنذ طلائع الأسرة الأولى على النشاط الاقتصادى فى مجال التعدين واكتشاف الذهب وزيادة الإنتاج منه، فتمتعت مصر بالرفاهية وتيسرت شئون الحياة داخليا.. هذا أولا.. ثم امتد نفوذهم خارجيا بالذهب ثانيا.. وتحققت بفضله المنزلة السياسية وسلطان القوة، وأصبح المصريون يشترون به الحلفاء فى آسيا منذ عهد تحتمس الرابع.. وهى أول تجربة فى العالم لتولى الاقتصاد دور قيادة

الأحداث وتوجيهها.. وهذا ما يحدث الآن بلغة القرن الحادى والعشرين وبعد أكثر من ٣٥٠٠ عاما.. أى أن الدور لا يرتكز فقط على قوة عسكرية..

.....

.....

وكما يقال.. دعونا نضبط عدسات رؤيتنا على منظور سليم وحتى نضمن لكلامنا أكبر قدر من الموضوعية والإنصاف.. فإن دور مصر - وباستثناء متفرد - يختلف تماما عن أى دور لأية دولة، فهو دور يلفت الانتباه إلى أهمية البعد التاريخى للدور. أهمية البعد الجغرافى للدور. أهمية البعد الحضارى للدور. وأهمية البعد الإنسانى للدور. وهكذا يتسع الأفق وتتضح الصورة..

وفى كل هذا.. كان دور مصر متواصلا فوق جغرافية سياسية حيّة ومع سنوات الهبوط والنهوض.. سنوات الضعف والارتقاء.. ولذلك فإن دور مصر - دون غيره - يضعنا أمام ثلاث حقائق:

الأولى: هى ارتكاز الدور على عبقرية "المكان" وعبقرية "الإنسان"..

والحقيقة الثانية: هى ذلك البناء الحضارى - كوحدة واحدة - لأساسيات الدور وقدراته وإمكانياته، ثم تراكم طبقات متلاصقة من حكمه التجربة وحسن التدبير وتقدير الموقف.

والحقيقة الثالثة: أن دور مصر لا يخضع لحسابات الطرح أو القسمة أو الجمع وفقا لأحكام المستجدات وتطوراتها..ولكنه دور ارتبط منذ سنوات ما قبل التاريخ بالإنسان المصرى..

- (ودور مصر يرتبط بحقائق تمتد جذورها القوية فى أعماق التاريخ.. ومنذ انفرد الشعب المصرى ودون غيره من شعوب العالم القديم بالسيطرة على عالم المادة، وبنى صرحا من المدنية المادية يعجز الزمن عن محوه.. ثم جاء الانتقال المبكر من النضال مع

الطبيعة، إلى النضال مع النفس، والارتقاء إلى حقيقة الأخلاق وسلطان العدل.. وهذا الارتقاء الاجتماعى المبكر مع السنوات الأولى من عمر التاريخ ارتبط بقواعد العدل والحق والمساواة وحقوق الإنسان..وساد الاعتقاد بأن جوهر الحياة هو "أنه من حق كل فرد التحلى بالأخلاق الفاضلة".. ثم كان الانتماء لفكر التوحيد الدينى أهم دعائم المجتمع المصرى لمواجهة ما يحل به من ملمات، وما يعترض طريقه من مخاطر وتحديات..

ثم نأتى للتطورات الاجتماعية داخل مصر ومع تلك البدايات المبكرة من عمر التاريخ.. دولة تعرف الكتابة والمعادن، وتسيطر عليها حكومة منظمة تنظيما ساميا، وتقوم بتشييد أضخم المنشآت المعمارية والتى لم يبن مثلها قط فى العالم القديم، ومما يدل على قدرة هذه الدولة وسيطرتها على العوامل المادية.. وهذه التطورات هى التى مهدت الأرض لحركة الدور، وأن تضع تقنينا ـ مبكرا ـ لمفهوم الدور المصرى فى ظل سلطة راسخة وإمبراطورية ناهضة أصبحت أول إمبراطورية ثابتة الأركان فى التاريخ، امتد سلطانها إلى الأقطار الأسيوية والأفريقية المجاورة.

وأعتقد أن هناك كثيرين لم يلتفتوا إلى حقيقة المفهوم الحضارى للدور المصرى.. وأعتقد ـ أيضا ـ أن هناك كثيرين لم يلتفتوا إلى أهمية البعد التاريخى مدخلا إلى أية دراسة جادة وعميقة لهذا الدور، وبغير هذا تبدو الحقائق مبتسرة مفتعلة.. ولذلك لابد من الاقتراب من قواعد التأسيس لدولة تمثل المحور الجغرافى للتاريخ.. الاقتراب من حقائق التجانس بين عبقرية المكان وعبقرية الإنسان.. والاقتراب من هذه الملامح التى جعلت للدور المصرى خصائص تتيح له أن يستوعب اتجاه الآخرين وأن يؤثر فى محيط أبعد من حدوده الجغرافية

....

ومن هنا كانت تلك الإشارات السريعة لدلالات ومعانى الارتقاء

الاجتماعي المبكر للشعب المصرى.. والرؤية الشاملة لما وراء الحدود وما بعد الحياة من عالم آخر.. والارتقاء الفكرى باستشراف حقيقة الكون وخالقه ومنذ زمن كانت بقية الشعوب المتناثرة على مساحات جغرافية مبعثرة من العالم القديم تعيش على هامش البدائية الفقيرة والعشوائية.. وهى حقيقة اعترف بها الفيلسوف العظيم افلاطون - والذى عاش فى مصر ثلاثة عشر عاما - وقال فى كتابه "القوانين": ما من على لدينا إلا وقد أخذناه عن مصر..

إذن هل يمكن إغفال هذه الأساسيات ونحن نتحدث عن المفهوم الشامل للدور - دور أقدم دولة فى عمر التاريخ - لا أعتقد.. ولكن يبدو أن كثيرين تجاهلوا أو ربما لم يدركوا أن هناك عناصر خلق لثوابت وأهداف ومبادئ ومشاعر وفكر وانتماء وإبداعات وتجارب تساهم وعلى امتداد سبعة آلاف عاما فى تحديد ملامح واستراتيجيات هذا الدور وحركته وتأثيره.

لذلك قلنا أن الحديث بصفة التحديد عن دور مصر يختلف تماما عن مجمل الأدوار وعن مواقف الدول الحديثة النشأة.. وبالنسبة لمصر فإن منطق العقل يقول إننا لا نستطيع أن نفصل بين أية محاولة لتقييم دور مصر، أو طرح التساؤلات والتوقعات بصيغة التنبؤ بمستقبل الدور وإمكانياته وحدوده وتأثيره.. وبين "قواعد التأسيس" لهذا الدور. ومنذ أدرك المصريون بوعى غير مسبوق - أن عقيدة الإله هى أعظم حقيقة فى الوجود.. وأن يتضمن "قسم" ملوك مصر قبل ٤٠٠٠ عام أو أكثر تمجيد الإله: "لأنه يعرف السماء ويعرف الأرض، ويرى جميع العالم فى كل ساعة".. ثم يأتى أخناتون قبل ثلاثة آلاف سنة مسبحا لله: "أنت خلقت الأرض، خلقتها وحدك لا شريك لك، كما شئت وعلى ما أردت.. الأرض بما فيها من بشر وأنعام وسائمة، وكل ما دب فوق ظهرها على قدميه وطار فى جوها بجناحين، وجميع الأقطار من الشام وكورش وربوع مصر".. وأن يكون كتاب الموتى والذى يوصف بأنه

"إنجيل المصريين الأقدمين" هو أول توثيق لقدرة الإنسان المصرى على التسامى وتوظيف العقل باتجاه الخالق.. والانتقال من النضال مع الطبيعة إلى النضال مع النفس وإخضاعها لحسابات ما بعد الموت، وتحديد ما يخص البوابات النارية التى كان يمر بها المتوفى حتى يصل إلى عالم الآخرة.. والعبور إلى الطريقين اللذين كان يسير فيهما فى سياحته.. وتصوير صيغة المحاكمة "الخلقية" فى عالم الآخرة وكيفيتها.. وقد توخى المصريون الحقيقة فى تصوير المسئولية الخلقية..

وهذه العقيدة - وهى من قواعد التأسيس - هى التى جعلت دور مصر فاعلا ومؤثرا مع حركة الدعوة للأديان السماوية وانتشار عقيدة التوحيد.. وكان لمصر دور وموقف مع الأديان خاصة المسيحية والإسلام، وكانت مصر موئل الأديان وملاذا للإنسان.. وهذه العقيدة هى التى رسمت حدود العلاقة بين الأخلاق والسياسة - مبكرا - ولا تعارض بينهما.. وأن هناك تناسقا بين الأفكار الأخلاقية وأساليب الممارسة السياسية.. والمصريون كانت لديهم أسباب من الثقة تجعلهم مطمئنين إلى دور الأخلاق فى الحياة الاجتماعية، ولذلك أقام المصرى تاريخه كله على رفض مالا يستقيم مع خلقه، والاعتقاد بأن " الأخلاق " تأخذ صورة خاصة متميزة فى كل مجال بذاته.. فى الفن والقانون والسياسة والحياة اليومية..

....

....

وبعيدا عن روايات التاريخ والوقائع والأحداث على تلك المسافة الممتدة فى عمر الزمن - سبعة آلاف عام - فإن العودة إلى الماضى ليست بهدف تنشيط ذاكرة أمة، وكما يقولون فإن الماضى نفسه مفتوح، وأن تاريخ أى شعب هو المؤثر الأكبر على ضميره، وأن الأمم تتقدم حين تعرف تاريخها وتعتز بهذا التاريخ.. ثم نتساءل..

من هم هؤلاء الذين يحاولون القفز على حقائق التاريخ وأحكامه ويتصورون إمكانية تآكل أو تحجيم هذا الدور أو انحراف مساره، أو تجميده أو تسكين حركته؟! وفى الجملة فإن هذه التصورات عاجزة تماما عن تقصى حقائق الدور.. أو الوعى بحسابات الأقدار التاريخية.. أو الفهم الصحيح لمفهوم ودلالات ومعانى "الدور" بالنسبة لمصر..

□□□□

قواعد التأسيس
عناصر القوة غير المنظورة

" ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء "..

قرآن كريم

صحيح أن نابليون بونابرت كان يعتقد وبوعى كامل لأحكام التاريخ والجغرافية أن مصر هى أهم دولة فى العالم.. ولكن هذه الرؤية الموضوعية والصادقة لم يتوصل إليها نابليون بإعجاز فردى للفهم وبفكر نافذ قبل أن تغرب شمس القرن الثامن عشر، فهناك كثيرون ممن سبقوا إلى إدراك هذه الحقيقة.. ومن أمراء الحرب.. ورجال الفكر ونبلاء الفلسفة وحكماء الجغرافية.. ومن الأنبياء والرسل.. وإلى لصوص العالم وقراصنة البر والبحر من الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط وحتى وديان وسهول وهضاب العالم القديم.. ومن الهكسوس والآشوريين والفرس والبطالمة وغيرهم ممن زحفوا إليها بحثا عن الثروة والنفوذ والزعامة وتوظيف الموقع.. وحتى تلك الرؤية التى حملت تطلعات المعز لدين الله وهو على عرشه فى المغرب حين أرسل قائده جوهر الصقلى فى مهمة تاريخية ليفتح مصر (وأن يبنى مدينة تقهر الدنيا).. وعجلة التاريخ لم يتوقف دورانها.. هذا صحيح.. ولكنها فرضت ـ وتفرض ـ هذا التساؤل وعلى الخط الممتد من عصر ما قبل التاريخ والتاريخ المعاصر: ولماذا مصر؟ وكيف استحوذت على هذا القدر من الأهمية؟ ولماذا انفردت بخصوصية الدور و"أسراره" وقدرات حركته على الحد الساخن الفاصل بين حدث وآخر.. بين المبتدأ والخبر فى جملة ما يجرى حولها؟ وكيف أصبح هذا الدور فى دائرة الترصد والترقب ويثير هواجس وقلق ومتابعات الآخرين رغم ثوابت المفهوم الحضارى والإنسانى لهذا الدور (؟؟)

....

عموما.. هناك تفسير مطلق وواسع يفسر كل هذا على أساس أهمية الموقع.. ولكنى أرى هذا التفسير انحيازا مطلقا للجغرافية فقط وينتقص كثيرا من قدر حركة التقدم التاريخى على هذا الموقع.. ومن الخبرة التاريخية العظيمة للشعب المصرى والذى خلق لهذا الموقع ـ أيضا ـ أهمية الدور والتأثير ومنذ المرحلة الأولى للتكوين الاجتماعى

والاقتصادى.. ومنذ بدايات التحولات الكبرى التى طرأت على الحياة الاجتماعية فى مصر.. وفوق ذلك ـ وربما قبله ـ النزعة الإنسانية والتطوير الإبداعى للشعب المصرى والذى واجه مبكرا صراعا مريرا وكفاحا متصلا بين الرى والجفاف، وبين الخصب والجدب، وهو يبذل الجهد فى سبيل استخلاص الأرض من الصحراء ليقيم أقدم دولة كائنة فى العالم المعاصر وبمفهومها القانونى: أى شعب متحضر وحكومة مركزية قوية وموقع له دور.

ومن هنا تبرز أهمية قواعد التأسيس لمفهوم الدور فالحديث عن التجربة التاريخية الممتدة للشعب المصرى لا يقتصر على سرحلة زمنية وأحداثها وإبداعات الفكر المصرى خلالها.. وحركة وتأثير الدور لم تتوقف وكأن هناك انفصالا تاريخيا بين هذه المرحلة وبين مُراحل وحقب أخرى.. هذا غير صحيح لأن الحركة متواصلة والنسيج الاجتماعى واحد، والتجارب تضيف إلى بعضها البعض عمقا ودروسا مستفادة وخبرات إنسانية تسكن فى أعماق الوجدان المصرى.. وهكذا تاريخ موثق على مدى أكثر من خمسين قرنا من الزمان.

....

....

والعودة إلى قواعد التأسيس ليست مجرد محاولة لقراءة التاريخ وإنما هى رحلة بالخطوة السريعة مع وقائع وأحداث لها دلالات ومؤشرات لا يمكن إغفالها لفهم الذات الجماعية للمصريين.. محاولة لإعادة قراءة المقدمات والمداخل للدوّر المصرى.. لأن الذين يتحدثون عن دور مصر بحسابات الوهم والخطأ وبتقديرات سوء النيات لم يكلفوا أنفسهم عناء قراءة الملامح الثقافية والوجدانية للشخصية القومية للإنسان المصرى.. كيف نتحدث عن الدور بأسلوب اللحظة الراهنة أو اللحظة القادمة ونعزله تماما عن السنوات الماضية.. وعن قواعد التأسيس، وعن الملامح الإنسانية والثقافية والوجدانية، وعن

التطوير الإبداعى للشخصية القومية للإنسان صانع هذا الدور ومحور العلاقة بين الموقع والموقف وحركة الدور وصاحب الرؤية التى تحدد الاتجاهات ونطاقات ومجالات الحركة والتأثير سياسيا واقتصاديا وثقافيا وعسكريا؟!! فهناك قيم وخبرات ترسخ فى العقول والقلوب على امتداد سنوات من عمر التاريخ وهى التى تحدد القراءة الصحيحة للدور أو تقييمه أو تحديد وأهمية وتأثير حركته.

والقصد.. ليس استجداء المكانة بالاستدعاء المستمر لذكريات الأمم وماضى الشعوب كما يتصور البعض، ولكن الاسترشاد بثوابت وحقائق وإنجازات، ولفت الانتباه للخصائص الفردية للإنسان المصرى والتى هى المكون الرئيسى للدور ومنها يستمد قوته.. وهكذا.

ولا أتصور الحديث عن دور مصر تحديدا دون الاقتراب من فكر ورؤية الإنسان المصرى حين أدرك مبكرا أن العلم هو حضارة المستقبل وتمكنت مصر أن تصل إلى قمة مجدها فى علوم الطب والفلك والهندسة ومنذ سنوات ما قبل الميلاد بنحو ٢٦٠٠ عام وصحيح أن هذا الزمن شهد سنوات اضمحلال فيما بعد ولكن هذا لا يشطب قدرة الإنسان المصرى على الإبداع الفكرى ومنفردا فى ذلك الزمن.. وسنوات الانكسار والاضمحلال لم تهضم أو تسحق طاقات وقدرات الإنسان المصرى ولكنه فى كل مرة يعود لممارسة دوره الريادى الثقافى والفكرى وبنفس التألق والتفرد وعبقرية الإبداع.. أليس فى كل هذا دلالات ومعان تفرض نفسها فرضا ونحن نتحدث فى الزمن الراهن أو بضمير المستقبل عن الدور المصرى.

ونضيف وبنفس الإشارة السريعة لسنوات الضعف والانكسار والاضمحلال على مسرح الأحداث تحت حكم البطالمة والرومان والبيزنطيين وحتى نصل إلى سنوات الاحتلال البريطانى وكيف حافظ المصريون على هويتهم الوطنية ومعتقداتهم وتراثهم، وعلى روح الإنسان المصرى؟! وربما نجد فى كلمات المفكر الإغريقى

"هيرودوت" تفسيرا لجانب من هذه الجوانب وهو يروى عن اشمئزاز المصرى من الإغريقى، لا يقبله ولا يصطنع أدواته أو يشرب من إنائه.. وأعتقد أنها أول تجربة فى التاريخ لتطبيق سياسة المقاطعة.. ولم تستطع سلطة الإمبراطورية الرومانية - مثلا - أن تحتوى المصريين أو خداعهم.. وإذا كان موقف الشعب المصرى اتسم بالرفض السلبى والمواجهة بالكراهية، إلا أن هذه السنوات وغيرها سجلت ثورات متتالية، وينتهى عمر الإمبراطوريات وترحل دون أن تنال من إرادة وهوية وروح المصريين.

ولم تكن كراهية المصريين للحكم الرومانى دافعا لدخول مصر فى الإسلام وفتح الأبواب والقلوب للدين الجديد.. وإنما هى قصة أخرى تؤكد ما رسخ فى أعماق الإنسان المصرى من دقيق الحس والشعور ومن القيم الأخلاقية - والأخلاق صورة من صور الوعى الاجتماعى - ومن القدرة على استشراف آفاق المستقبل، ومن الوعى المبكر بمفهوم العمق الاستراتيجى للهوية المصرية والأمن المصرى.. واتصالات بوشائج القربى والنسب، وفى الذاكرة أن السيدة هاجر المصرية أم إسماعيل عليه السلام هى أم العرب.. وأن للعرب فيهم صهرا وذمة.. ولعبت مصر دورها تحت راية الإسلام والعروبة.. وصدق رسول الله بما روى عنه من قوله لصحابته عن أهل مصر: "فإنهم قوة وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله".. "يكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله".. والقوة تتمثل فى هذا الدور.

وهنا نجد أنفسنا على سبيل المثال أمام إحدى ملامح تأثير قواعد التأسيس التى أشرنا إليها وخلقت ذلك الوعى وحركة الفكر التى تميز خصائص الشخصية المصرية وصلابتها.. فحين أقبل الفاطميون وحاولوا على مدى قرنين كاملين نشر المذهب الشيعى فى مصر وتأسيس الأزهر قاعدة لدراسة هذا المذهب وأن يدعم هذه الدعوة سيف المعز وذهبه، وإجلال "آل" بيت رسول الله.. ثم.. ماذا حدث بعد مائتى عام تقريبا؟ انحسرت دولة الفاطميين ولم يتركوا فى

مـصـر شيـعـيـا واحـداء وأصبـح الأزهر منارة مـذاهب أهل السنة والتابعين، مع انفراد المصريين بذلك الحب والإجلال لآل البيت.

....

وتقـترب الدكـتورة نعـمات أحـمد فؤاد مـن معـان ودلالات سر "الروح المصرية".. من مـلامح الشخصية المـصرية ـ وهى المحرك الرئيـسى للدور المـصـرى ـ ومـا انفـردت به من طاقـات وقـدرات وإبداعات خلقت للمـوقع قيمة مـضـافة.. وهى تقول: لقـد "فرنست" فـرنسا شـمال أفـريقـيا، وفرضت انجلتـرا على الهند وتعـداد الهند أربعمائة مليون نسمة فـرضت انجلترا عليهم اللغة الإنجليزية ولكنها عجزت عن فرض لغـتها على مصر وكان تعـداد الشعب المصرى فى أواخر القرن التـاسـع عشر وأوائل العشـرين لا يتجاوز بضـعـة عشر مليـونا ١٢,٧١٨,٠٠٠ وفقـا للتـعداد الرسـمى للسكان الصـادر من الجهـاز المركزى للتعـبئة العـامة والإحصـاء سنة ١٩٨٦، بل تزعمت مـصر العـالم العـربى بالأزهر فى الشـرق والجـامعـة المصـرية فى الغرب.. وكـانت مصر أيضا قـبلة العالم الإسلامى، حتى المعز لدين الله الفاطمى جاء إلى مـصر غازيا فإذا به يتخذ مصـر قاعدة لدولته ومركزا للحكم وبدلا من أن تتـبع مصر، صار الجميع إليـها، منتمين وصارت القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية، بل نقل المعز إلى مصر فى طريقه إليها رفات أجداده!! لقـد اختار.. ومن الطريف أن أخاه حرص على الزواج من مصرية قبطية ولكن المصريات جميعا قطرات صافية مقطرة من النيل.. وكل غـزو خارجى تقابله مصـر بغزو داخلى يمس من الدخيل الجوهر والكيان حين لم يستطع غاز أن يغير منها أو ينفذ إلى الصميم أو يمس الأعماق..وتحـضرنى وأنا أكتب إحدى الطرائف المصرية.. فقد ادعى العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين فى مصر أنه يعرف الغـيب من باب بث الرعب فقهقـه المصريون وكتبـوا له ورقة علقوها على منبر الأزهر، وكان من عادة الخلفاء أن يصلوا مع الناس الجمعة بانتظام فى المسجد، كتب المصريون هذين البيتين.

بالظلم والجور قد رضينا
وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أوتيت علم غيب
فقل لنا كاتب البطاقة
فأفاق المعز..
لقد خانه الذكاء ونسى إنه فى مصر

ثم تستطرد الدكتورة نعمات فؤاد فى مقالها لتختتمه بالعبارة التالية: لقد مصرت مصر "المسيحية" وجعلتها فيها دون بقية البلاد: قبطية.. بهذه المناسبة الكلمة اليونانية "أجيبتوس" معناها مصرى والسين أداة التعريف فى اللغة اليونانية منها كلمة "قبطى" معناها مصرى سواء أكان مسيحيا أو مسلما..وقد احتوت مصر "اللغة العربية" وتجاوبت مع الإسلام بكل ما يعنى التجاوب من تبادل الأخذ والعطاء.. لم يكن يوما عنصرا سالبا بل كان إيجابيا مؤثرا وأثيرا.. لقد وضعت مصر قاموس العربية الذى يرجع إليه عند مظنة الخطأ أو تحرى الصواب ـ المتحدثون بالعربية حتى أهل اللغة الأصليين.. القاموس الذى وضعه ابن منظور المصرى: "لسان العرب" إن اسم جمعية "لسان العرب" جاء توفيقا وتوثيقا..

....

....

وعودة بأثر رجعى ـ مرة أخرى ـ إلى قواعد التأسيس ونكرر أنها ليست محاولة للهروب من الحاضر إلى الماضى أو مجرد نزعة للقياس على شواهد الإطلال والأحداث التاريخية.. وإن كنت أرى ـ مثلا ـ فى فنون النحت والعمارة للمصريين والتى تنطق بالقوة والشموخ ودون غيرها من آثار العالم القديم.. وأن يكون " الكاتب " فى هذه المرحلة المتقدمة من عمر التاريخ أعلى درجة ومنزلة فى الدولة..إشارات تستحق الوقوف عندها باعتبارها تحمل تعبيرا عن سمات الشخصية المصرية وقوة الإحساس بالنفس.. ولكن هذا

الاستطراد مجرد إضافة عابرة على هامش الاسترشاد بإبداعات الإنسان المصرى.. صاحب الدور.. وصانع حركته الفاعلة المؤثرة.. وخالق القيمة المضافة للموقع.

ولا أتصور - مثلا - أن نتعامل مع هذه الحقائق برؤية ضيقة نحشرها غالبا داخل جدران المتاحف ونحن نتحدث عن الدور المصرى والشخصية المصرية.. فكيف يمكن أن نغفل رؤية سبقت زمنها بنحو خمسين قرنا لاستثمار الموقع وبحسابات التقدير لأية احتمالات طارئة حين لم يكتف الإنسان المصرى بموارد المياه من نهر النيل وشق القنوات ومنذ عهد الملك "العقرب" الذى حكم مصر من قبل " مينا " مؤسس الأسرة الأولى، ولكن بادر بحفر الآبار فى الجبال والسهول لتوفير المياه فى المناطق النائية وعلى طريق القوافل وفى بقاع التعدين فى الصحراء حيث بدأت مع فجر التاريخ البعيد أولى خطوات التنقيب عن المعادن ومن صحراء النوبة جنوبا إلى صحراء سيناء شرقا واستخراج الذهب والنحاس والزجاج الصخرى والعقيق وغيرها فضلا عن الألباستر والديوريت وصخور الجرانيت الأسود والأحمر.. مع الاستغلال المنظم للمناجم وقيام مجتمعات العمال إلى جوارها وتوفير أسباب الأمن لحركة النشاط الاقتصادى..

ويقال - وأظن أن القول صحيح - إن الأساس الاقتصادى للمجتمع هو الذى يحدد على المدى الطويل طبيعة العلاقات السياسية والأخلاقية على السواء.. وإلى هذه الدرجة كانت رؤية وحركة فكر وفعل الإنسان المصرى

ولا أتصور - مثلا - ونحن نتحدث عن أبعاد الدور المصرى وفاعليته وتأثيره وحدود حركته فى الزمن الراهن أن يكون حديثا منعزلا عن الخبرة التاريخية العظيمة للإنسان المصرى والتى شكلت وجدانه وقدراته وطاقاته ومنذ بدايات " الإبداع الإنسانى " وبفكر المصريين لتنظيم هيكل المجتمع المصرى اقتصاديا واجتماعيا، وتأسيس المحاكم وتعيين القضاة ووضع أول تشريع للضرائب منذ

القدم يحدد طبيعة عمل كتائب من العمال المساعدين ومن الكتاب لقياس " الغلال " وتثبيتها فى الدفاتر وحفظها فى أضابير ورفع تقرير بها لولى الأمر.. وقد أدرك المصريون مبكرا دور المسئولية الجماعية فى بناء الدولة بمفهومها الحضارى مع سيادة العدل والمساواة وفى ظل استراتيجية اجتماعية دينية تتسم بالشمول..

وهذه رؤية الإنسان المصرى وباعتبار أن التناقضات الاجتماعية فى المجتمع المتطاحن تفسد التقدم الأخلاقى.. ويعتقد كثير من علماء الاجتماع بأن الرأى العام المشوه والخامل سياسيا والأعزل أخلاقيا إنما هو نتاج نظام اللامسئولية الجماعية.. وأدرك المصريون ذلك منذ فجر التاريخ.

....

ومرة أخرى هذه السطور ليست استدعاء لذكريات الماضى البعيد أو الأخذ بالقياس على إطلال وأحداث تاريخية ولكنها إشارات بالخطوة السريعة إلى قواعد التأسيس لشخصية الإنسان المصرى مع التأكيد على المنابع والأصول.. ونرجو ألا يظن البعض أننا نتحدث عن إنسان آخر من زمن مضى ثم انفصلت الجينات والجذور والخبرات والتجارب عن الإنسان المصرى فى هذا الزمن الراهن وكأننا نروى قصة بفصولها المتباعدة والمنفصلة عن بعضها البعض من زمن مجهول!!ويتداعى إلى فكرى سؤال ربما يطرحه الآخرون أيضا: إذا كانت تلك بعض ملامح الشخصية المصرية وهى المحرك الرئيسى للدور المصرى وما انفردت به من طاقات وقدرات وإبداعات متعددة خلقت للموقع قيمة مضافة وجعلت للدور تأثيرا فاعلا.. فأين نحن إذن من هذه الشخصية وإطارها العام؟! وأين الدور المصرى - داخليا وخارجيا - من موقعه الطبيعى والريادى وقدرات تأثيره؟! ولكن هناك فرقا بين طرح التساؤل وبين الدفع بالشكوك.. وقدر مصر أن السهام التى تشكك فى دورها وقدراتها تتجه إليها دائما من الآخرين.. وأحيانا من أبنائها.. ثم تأتى الإجابة حاسمة ومحددة تؤكد

عمق تأثير قواعد التأسيس.. وتؤكد طاقات وإبداعات الشخصية المصرية وتؤكد دلالات ومعانى روح مصر.. وتؤكد حيوية وحركة الدور المصرى..

وصحيح هناك من يرى أن "عبقرية" المكان خلقت "عبقرية" الدور.. وأن أحكام الموقع جغرافيا خلقت بدورها ضرورات وفروض وقدرات "الدور" نفسه بل وتحدد له ثوابت الانتماء والحركة، وتحدد له ضرورات الأمن وضرورات المصلحة القومية.. ولكن هذه الرؤية قد يفهمها الآخرون بمفهوم الفلسفة الجغرافية - إن صح التعبير - أو أنها مجرد دروس جغرافية على صفحات التاريخ.. وهى بالفعل دروس وحقائق لها صفة العمومية أى تنسحب على أى موقع لأى دولة تتمتع بمزايا الموقع وطبيعة التضاريس التى توفر لها نوعا من الحماية والحصانة يغريها بأن تلعب دورا تاريخيا!!ولكن "الدور" ليس مجرد فعل أو حركة أو تأثير يستمد قوته من داخل "أطلس".. البيئة الطبيعية وخطوط الطول والعرض، وإنما هو فى الأصل مفاهيم واعتبارات وقيم موضوعية وتاريخية وثقافية تنشأ مع أساس كل حضارة إنسانية، وفى حضنها..

وتاريخ مصر هو تاريخ الحضارة الإنسانية فقد كانت مصر أول دولة تظهر فى العالم كوحدة سياسية - أى خلق الدولة الأمة داخل حدود سياسية مرسومة - وهذه الدولة أقامت أول حضارة متكاملة الأبعاد عرفها التاريخ.. وهذا المفهوم الحضارى أعطى لدور مصر تفرده.. وهذا الدور كان أول تقنين إنسانى لمعانى ومطالب وأحكام وأهمية الموقع والمكانة، وتأثير تراث الحكمة والفكر واتساع المعرفة.. ثم كانت حركة التقدم الفاعلة المؤثرة فى وجدان التاريخ..

ودعونا نستطرد أكثر فى استكشاف أبعاد الدور المصرى ومكوناته.

أولا: إذا كان صحيحا أن التاريخ يملى على دولة ما دورها.. وبالنسبة لمصر فإن مسار التاريخ وحركته أعطياها الفرصة لتكون

قوة أكبر من مجرد خطوط حدودها.. إذا كان ما يقال صحيحا - وهو هكذا بالفعل - فإن الجانب الآخر من الحقيقة يؤكد أن الدور المصرى استوعب حقائق التاريخ والجغرافيا.. وكان لمصر قدرتها على وضع كل هذه القوانين الطبيعية فى إطارها وبطاقة الجهد الإنسانى أولا.. وديناميكية متسامحة متطورة تستوعب المتغيرات وتعلو عليها.. حالة فريدة لتراكم عناصر من حضارات متتالية على الأرض الصلبة التى بناها الشعب المصرى بتفاعله مع بيئته ومحيطه الخارجي والتلاؤم والتناسق والتناغم مع الواقع.. فالمجتمع المصرى فى حالة اتساق مع نفسه وجغرافيته ومجموعة القيم الحضارية.. وبهذا المنطق الإنسانى فإن إيقاع الزمن كان يعطى لمصر كل الوقت الذى تريده.. وكان الزمن يسمح لها بما لم يعد يسمح به لغيرها.

ثانيا: التفاعل الخلاق بين البشر والأرض التى يعيش عليها.. والتفاعل الديناميكى بين الإنسان المصرى ونهر النيل بعد أن سجلت مصر أول تجربة فى التاريخ الإنسانى للتحكم فى فيضان النهر ورصده وقياساته وكيفية الاستفادة منه وكيفية التعامل معه فى مواسم الجفاف ومواسم الفيضان.. وهذه إحدى منابع الدور المصرى، فتنظيم وضبط النهر ارتبط بالتنظيم الاجتماعى، وبدوره أثر فى هوية المصرى وذاتيته وفكره وتعامله مع الأحداث.. وبناء الأمة والتجسيد المحدد للشخصية المصرية ودورها.. فالشخصية المصرية وحدة واحدة عبر تاريخها تسعى لبناء الحضارة وتحرص على الاستقرار، ولا تسعى للغزو والسيطرة والاستعمار، وترفض الخضوع لعدو خارجى وتتحمل المعاناة ولكن إلى حد ما ثم يكون رد الفعل حاسما..ثم حقيقة السلام الذاتى الداخلى للإنسان المصرى والسلام الخارجى فى مواجهة السلطة الحاكمة، ولذلك فإن ظواهر العنف والإرهاب أو ظواهر التوتر داخل المجتمع كانت ظواهر عارضة على الشخصية المصرية الأصيلة التى تتصدى لهذه الاستثناءات العابرة، ولذلك أيضا لم يعرف التاريخ المصرى فى

مجملة ثورات ضخمة أو اضطرابات دموية عنيفة، فالاتجاه العام للتاريخ المصرى ولسلوك الإنسان المصرى هو أسلوب حضارى.. يميل للمثالية والقيم تحت تأثير هذا البعد الحضارى.. وهذه الثلاثية.. كان لها تأثيرها من التفاعل بين: الإنسان المصرى، والنيل، والموقع.. كان لهما تأثيرهما على فكر مصر وهويتها السياسية ودورها..

ثالثا: إذا كانت أحكام الجغرافيا والتاريخ تفرض على أى شعب ثوابت تحدد له الدور والانتماء.. فإن هناك نوعا من التراضى العام بين شعب مصر وموارده وجغرافيته وحياته على مدى سبعة آلاف عام.. وهذا النوع من التراضى العام له أيضا أحكامه، فالوطنية المصرية لها جذورها وقوة جذبها..ولها فلسفتها بأن التاريخ ليس هو الذى يصنعنا ولكننا نحن أيضا نصنع التاريخ.. من هنا يمكن الإشارة إلى عناصر القوة غير المنظورة للدور المصرى وهذه العناصر تصبح أشد تأثيرا من عوامل القوة المنظورة..

وصحيح أن أى دور لا يستند إلى مفاهيم غيبية أو مثالية - وإن كانت بالفعل تستحق الإشارة إليها هنا - فهناك أشياء ليست مادية وليست مرئية - ولا يفهمها الآخرون - ولكن قوتها أفعل من المادى المرئى.. ليست مادية وليست مرئية، ولكن حساباتها هائلة.

رابعا: ولا يمكن نزع القداسة عن هذا الدور.. ولأمر ما قدر الله سبحانه وتعالى للمصطفين من أنبيائه ورسله أن يتجهوا إلى مصر ويقيموا فيها ما شاء لهم أن يقيموا.. أقبل عليها إبراهيم أبو الأنبياء ويتزوج "هاجر" المصرية وتلد إسماعيل - عليه السلام - ومن إسماعيل تخرج أمة العرب.. وأقبل عليها يسوع المسيح - عليه السلام فى المهد وكانت به أسبق المؤمنين.. وعلى أرضها كلم الله موسى وبعثه للعالمين.. وكانت رحلة يوسف - عليه السلام - واستقراره فى مصر.. وصدق رسول الله بما روى عنه من قوله فيها "فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك خير أجناد الأرض.. فإنكم ستجدونهم نعم العون على قتال عدوكم.. ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله"..

ونقل عن الكندى قوله "لا يعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر".. ولله سبحانه وتعالى حكمة هو بالغها فقد ذكرت مصر فى القرآن فى ثمانية وعشرين موضعا بل أكثر من ثلاثين موقعا فيها ذكر مصر من القرآن صريحا أو كناية.. كما جاء فى كتاب جلال الدين السيوطى "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة"

وهل يمكن أن نستبعد دور مصر عن هذا التكريم والتفضيل.. أقصد المعنى والدلالات والقوى غير المنظورة..

□□□□

العسكرية المصرية

«وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى»

قرآن كريم

أتصور أن الخطأ - أو الخطيئة - هو أن نتعامل مع دور مصر برؤية مسطحة لأن الأمر يرتبط بالتفاعلات التاريخية والحضارية والتى لا يمكن إغفالها ونحن نتحدث عن هذا الدور.. ولأن الجغرافيا والتاريخ - معا - والتجارب والمواريث الحضارية لقرون طويلة خلقت ما يمكن أن نطلق عليه " قواعد التأسيس " للدور المصرى.. ومن هنا يمكن قراءة ملامح المستقبل.. وإدراك حقائق القوة وحركة الدور وتفرده.

....

....

وهناك من يحاول أن يقترب من هذا الدور بأفكار وتصورات لا ينقصها سوء الفهم بقدر ما تفيض بسوء النوايا، وتستند إلى حسابات الوهم - والمسألة ليست مجرد آراء أبداها أصحابها، ولكنها تصورات وتقديرات "عشوائية" تمتد فصولها إلى سنوات ما قبل التاريخ.. ومن "ابوبى" ملك الهكسوس حين تصور أن دور مصر انكسر تحت ضغط الضعف السياسى للبلاد.. وإلى "هولاكو" و"غازان" وتصورات المغول أن دماء الشرق سوف تزحف أنهارها على الدور المصرى ويستقر لهم ملك الشرق والمغرب.. ومن البطالمة إلى "جان دى بريين" و"لويس التاسع" وتصوراتهم بأن الصليبيين لا مستقر لهم فى الشرق باستقرار مصر، وأن هزيمة الدور المصرى وإجهاض تحركاته البداية الصحيحة لترسيخ قواعد سلطاتهم وسلطانهم.. وهكذا سلسلة متصلة الفصول من قصة طويلة تؤكد أن مصر كانت استثناء نادرا فى العالم فقد استطاعت السيطرة على أوهام وأحلام ومطامع الآخرين.. وأن تعيد تصحيح مسار التاريخ.. ولا أظن أن أحدا يختلف معى بأن القوة العسكرية هى أحد عناصر أو دعائم هذا الدور.. وصحيح أن القوة العسكرية ليست وحدها القوة الدافعة لحركة الدور، ولكنها تبقى - دائما - قاعدة الانطلاق والتأثير.. وإذا كانت حقائق القوة للدور وتأثيره يصنعها البشر أولا

قبل الموقع وأهميته ثانيا، فإن العسكرية ـ دائما ـ تأتى تجسيدا لخصائص وهوية وفكر وقيم ومبادئ هذا الدور.

وهكذا كانت العسكرية المصرية..

ويقول الدكتور جمال حمدان أن درس الحروب الصليبية هو درس استراتيجي أساسا، يؤكد لنا خطورة الموقع، وأن تحرير الأراضى المقدسة رهنا باتحاد قوة مصر البشرية مع قوة الشام، وحين تحقق هذا كانت "حطين" صلاح الدين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، هى "ارما جدون" الصليبيات وبداية نهايتها، وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر كانت هذه النهاية، ولكن ما بين بداية النهاية ونهايتها تحولت الصليبيات إلى مصر حيث أدركت بالتجربة المريرة أنها قطب المنطقة استراتيجيا وبشريا..

وأن الإمبراطورية العثمانية حين اتجهت إلى الشرق العربى وذلك ابتداء من العقد الثانى من القرن السادس عشر أى بعد نحو ثلاثة قرون من ظهورهم كقوة لأول مرة فى الأناضول، فقد اتجه الزحف إلى مصر رأسا عن طريق سوريا التى كانت تابعة لمصر المملوكية، وهذا الاتجاه المحدد يؤكد ما سبق أن أوضحته الصليبيات من أن مصر هى مفتاح المنطقة العربية، لاسيما أن كل ثقل الدولة العربية الإسلامية كان قد انتقل كاملا ونهائيا إلى مصر بعد تدمير العراق على يد المغول..

وربما وجدنا أنفسنا الآن فى حاجة إلى التفاته سريعة إلى الوراء.. إلى الخبرة التاريخية العظيمة للشعب المصرى والتجارب المستقرة فى تضاعيف الزمن.. وهذه نقطة أريد أن أشرحها أكثر حتى لا يقال أنه استدعاء ذكريات الماضى أو القياس على أطلال وأحداث تاريخية.. رغم أن من يتجاهل التاريخ هو من ينسى أن البذرة هى التى تصنع الشجرة..

....

والعسكرية المصرية ودورها ـ على سبيل المثال ـ تعد نموذجا

للتعبير عن هذه الحقيقة.. وأقصد حقيقة وحدة البنيان لحركة الدور، وكيف أن عبقرية الإنسان المصرى لا تعتمد على أسطورة غيبية ولكن تستمد روحها من التجارب التى تضيف إلى بعضها البعض عمقا، ودروسا مستفادة، وخبرات إنسانية تسكن فى أعماق الوجدان المصرى، ثم شكلت ملامح الشخصية المصرية ـ وهى المحرك الرئيسى للدور ـ وما انفردت به من طاقات وإبداعات.. ولست أريد هنا أن أقوم بعملية تطبيق كاملة لهذه العوامل والقواعد، فذلك بحث طويل، ثم أن هناك من هو أقدر على القيام به ـ علما وفكرا وتخصصا ـ ولكن يبقى هدفى هو أن أشير إلى تأثير " قواعد التأسيس " على الدور المصرى.. أن أشير إلى ترابط وتلاحم وتناغم الحركة التاريخية من تجارب، وتطوير إبداعى، ومواريث حضارية.. وكيف أن الإنسان المصرى بعد أن تحدى موجات من استفزازات غرور القوة، ومن التشكيك، وفقدان الثقة فى قدراته.. أدار مواجهات عسكرية حاسمة، وبفكر عسكرى منظم، وسجل أول نظريات عسكرية فى التاريخ الإنسانى للتخطيط الميدانى، وتقسيم الجيش إلى قطاعات، ومواجهة العدو بأسلحته بعد تطويرها، وفرض أسلوب القتال عليه.. وبعد الانتصار يتحول ليعيد بناء دولته من جديد.. ومن زمن الهكسوس إلى زمن المغول.. هو نفسه الإنسان المصرى الذى كان معجزة حرب أكتوبر وأيتها الكبرى وفى ظروف وأحوال ومهاترات وحملات تشكيك تقارب تماما ما حدث قبل ثلاثة آلاف عام وما بعدها..

إذن كانت العبقرية العسكرية تكرر نفسها وتعيد تصحيح مسار التاريخ.. ولو كان هناك منصف لأحكام التاريخ ولقدرات الإنسان المصرى.. لو كان هناك من يجيد قراءة التاريخ بموضوعية وفى ذلك التوقيت بعد نكسة ١٩٦٧ لأدرك وبوعى كامل ما سوف يحدث ويكون.. ومهما كانت العقبات والتحديات.. صحيح بعد نكسة ١٩٦٧ مباشرة كان القرار المصرى بقبول التحدى.. والقرار بالطبع مرادف

دقيق لمعنى الإرادة المصرية - وهى خارج حسابات الهزيمة - لأن الإنسان المصرى الجريح وقتها بدأ سلسلة من العمليات العسكرية الناجحة بعد أيام فقط من النكسة، حدث هذا فى معركة رأس العش وانتصر.. ثم إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات بصاروخ من طراز "ستايكس" أثار اهتمامات وأبحاث الفكر العسكرى، وفتحت هذه العملية المصرية عصرا جديدا دخلت به الحروب إلى عصر الصواريخ ومرحلة جديدة فى تاريخ السلاح.. ثم حين أرسلت إسرائيل الغواصة "داكار" لاستكشاف القاعدة الرئيسية لقوارب الصواريخ تم إغراقها أيضا بقذائف الأعماق وتحولت إلى مقبرة حديدية تضم ٧٨ ضابطا وبحارا إسرائيليا.. وهكذا.. لم تهدأ حركة المواجهة رغم أن حديث النكسة فى الأيام الأولى كان مريرا، والقلوب تنزف بالحسرة والوجيعة.. وبقيت خصائص الإنسان المصرى - المتفردة - لم تطلها هزيمة عسكرية، وسجلت العسكرية المصرية تجربة لا تزال حتى الآن فى منطقة الظلال ولم تحظ بما تستحق من دراسات وأبحاث وقراءة وقائع ما جرى.. رغم أنها وبكل المقاييس تجربة فريدة لإعادة البناء والتخطيط والتنظيم والتمهيد لمعركة الثأر والتحرير، وكل هذا تحت ضغط ظروف بالغة القسوة والمرارة، وفى ظل أجواء قاتمة وحزينة، والإحساس العام بأن كل شىء آيل للسقوط والانهيار.

ولكن.. كانت المفاجأة الحقيقية هى إرادة الإنسان المصرى، والحس التاريخى للمصريين وعطاء التجارب فى حياة الأمم.. وما حدث جاء على عكس كل التوقعات والتقديرات والتى أقامت حساباتها على رؤية مسطحة للتاريخ وللحركة التاريخية، واكتفت بمنطق موازين القوة فقط وبالواقع المنظور أمامها.. وتجاهلت القيمة الحقيقية لخصائص الإنسان المصرى.. ومن هنا كانت المفاجأة بعد أن أصبحت المبادأة فى يد المصريين بعد تنشيط الموقف العسكرى، وتسخين جبهة القتال، وتحديد استراتيجية المراحل الثلاث: الصمود ثم الردع ثم التحرير.. وخلال هذه الأيام الأولى من صدمة النكسة

كان الجندى المصرى قد عرف طريقه للعبور إلى الشاطئ الشرقى من القناة.

ومع بداية السبعينيات خيمت حالة اللاحرب واللاسلم ومعها فتحت الأبواب للمبالغة فى الانهزامية اليائسة، وزحفت حملات التشكيك ترمى بسهامها فى كل اتجاه.. كأنه قد كُتب على مصر دائما أن تواجه بهذه الحملات والتشكيك فى قدراتها ودورها!! وانطلقت كتائب التساؤلات تدفع أمامها بعلامات التعجب الساخرة: كيف يتصور المصريون أن لهم القدرة على المواجهة والتغيير والتحرير؟! وأجمع الخبراء العسكريين فى العالم وبغير استثناء أن عملية العبور أقرب للمستحيل لأن ميزان القوة وبكل المعايير لصالح إسرائيل، وأن قناة السويس نفسها حاجز مائى من أصعب الحواجز، وأن خط بارليف سلاسل متصلة من المواقع الحصينة، وأية محاولة للتحرك المصرى تتطلب تضحيات ليس من السهل قبولها.. وماذا تفعل مصر وكل ما تمتلكه يتم تصنيفه تحت قائمة الأسلحة الدفاعية.. وهل بمقدور الفكر العسكرى المصرى أن يجد حلا لمعادلة المستحيل (؟!) باختصار تم حجز الدور المصرى - وكما يرون.. وبتصوراتهم وتوقعاتهم - فى دائرة العجز خلف حاجز الخوف.. وأن أى حركة للدور المصرى لا تعدو كونها مغامرة مع المجهول.. وأن تغيير الأمر الواقع رهن تحركات وتدخلات ومساعى الآخرين مع توافر شرط مرونة الموقف الإسرائيلى!!ثم ماذا حدث (؟) فشلت كل التوقعات والتصورات والاستنتاجات.. وبدأت ملحمة العبور، وهى مفاجأة الدور المصرى.. وأصبح العالم أمام حدث فريد فى تاريخ الحروب.. تجربة عسكرية قلبت موازين النظريات المتعارف عليها.

....

ولم يتصور أحد أن المصريين كانت لديهم أسباب من الثقة تجعلهم مطمئنين إلى قدراتهم.. وإلى إبداعات الإنسان المصرى.. وإلى حكمة التجربة والتى تمتد جذورها القوية فى أعماق التاريخ..

فمنذ ثلاثة آلاف عام تقريبا كانت تجربة المواجهة مع استفزازات وتحرشات، وممارسات حماقة القوة وغرورها بعد احتلال الهكسوس لشمال مصر، واستقر بهم المقام فى الدلتا، واتخذوا لأنفسهم نظم الملك وألقابه المصرية، واستمر حكم هؤلاء الملوك حوالى قرن ونصف القرن من الزمان ـ وهو عصر الاضمحلال الثانى ـ وسادت أيضا أجواء التساؤلات مع اضطراب الأحوال والأمور: كيف يتمكن المصريون من تحرير بلادهم وبعد أن بلغت حماقة الهكسوس إلى هذه الدرجة التى يحتجون معها على " أفراس النهر " وأصواتها المزعجة التى تقلق نوم ملك الهكسوس على بعد ١٢٠٠ كيلومتر (!؟!) وكيف يواجه المصريون عدوا استوطن وامتلك أدوات التكنيك الحربى فضلا عن الخبرة القتالية لموجات الهكسوس التى هبت كاسحة ـ وكما يقول المفكر الراحل د. جمال حمدان ـ واستطاعت أن تضرب من قلب الاستبس وعلى طول هضاب ومرتفعات وسط جنوب غرب آسيا وحتى الوصول إلى مصر (!؟!) ورغم تساؤلات اليأس والاحباط، سجل المصريون أول حرب تحررية كبرى فى تاريخ العالم وبعد أن أخذوا عن الهكسوس ـ أنفسهم ـ العجلات الحربية، والخيل، والقسى المزدوجة، وألوانا من الأسلحة والسيوف مع تطوير التكنيك الحربى حتى تمكن "أحمس" من طرد الهكسوس وشطب وجودهم بعد احتلال دام حوالى ١٥٠ سنة.. ثم بدأت حركة الدور المصرى بعد الانتصار بالاتجاه شرقا وجنوبا، حفاظا على الحدود، وتأمينا لطرق التجارة والنقل، وضمانا لموارد الثروة..

لذلك مدت مصر سيادتها من سوريا وأعالى الفرات فى الشمال الشرقى وإلى الشلال الرابع فى السودان جنوبا ـ ويبدو واضحا الوعى المبكر بضرورات تأمين العمق الاستراتيجى، وخلق قواعد متقدمة لصد أية محاولات للعدوان والغزو ـ وازدهرت الحياة فى مصر، ومع الاستقرار الداخلى ترسخت قوة العسكرية المصرية.. ويجمع المؤرخون على أن " تحتمس الثالث " أول قائد حربى فى

التـاريخ وضع خطة تقـسـيم الجـيش إلى قلب وجـناحـين، وتشكيل مجلس أركان حرب يتشاور مـعه فى وضع الخطط الحربية.. وكانوا يدركون أن خط الدفاع الأول على مصر لا يقل عمقا عن تخوم الشام وهذا ما حدث أيضا ـ وبنفس الرؤية ـ فى عام ١٥١٧م حين سارعت مصر لملاقاة الزحف العثمـانى خارج حدودها، ولكن تمزقت المقاومة المصـريـة فى "حلب" وتراجـعت إلـى خط الدفـاع الثـانـى فى قلب القاهرة.

وتكررت التجربة مع غزو الآشوريين ومع احتلال الفرس.. وعجلة التاريخ لم تتـوقف.. ثم أدرك الصليبيـون بالتجربة المريرة أن مـصر هى قطب المنطقة اسـتراتيجيا وبشـريا وهى مفتاح المنطقـة العربية.. وأنه لا مستقر لهم فى الشرق طالما استمرت المقاومة المصرية.. وفى النصف الأول من القرن الثالث عـشر شهدت مصر مواجهـة حاسمة مع موجتـين صليبيتين أبـيدتا فى برارى وسهول الدلتا.. وأعـتقد أن أول وآخر انكسار للمـغول فى عين جالوت عـام ١٢٦٠م يحمل قدرا كـبيـرا من حسـابات الاعتـبار التـاريخى وأثره على عطاء الإنسـان المصرى..يحمل قدرا كبيرا من عناصر القوة غير المنظورة الكامنة فى وجدان المقـاتل المصرى.. فلم يتـوقع أحد أن ينتهى المـد المغولى على أيدى المصريين..وكـان ذلك منطقيا ومقـبولا لعدة أسبـاب.. منها: إن برابرة التتار تحت زعامة " هولاكو " وصلوا إلى العراق بعد مسيرة طويلة حفـرت تاريخهـا بالدم والعنف والتخـريب والتدمـير الرهيب، وتدفعها مـوجات سابقة من زمن جنكيز خان وكـوبلاى خان تكتسح فى طريقها الدول وجـيوشـها.. وبعد فـاجعة بغداد التاريخـية ونهاية الخلافة العـباسية يتقدم المغـول إلى الشام مستهدفـين مصر.. وفى المقابل كانت الأوضـاع فى مصر غير مـستقرة، والصـراع يحتد بين المماليك على السلطة والحكم، والتـآمر يخترق ميليشـيات ورجال كل فريق، وكـانت هموم المطامع والمغـانم تسيطر على السـاحة وتنعكس على تصريف شئون البلاد.. ومنطق العـقل يقول أن الأبواب مفتوحة

أمام موجات المغول وانتصاراتهم المتلاحقة، وأن ميزان القوة والخبرة القتالية يميل لصالحهم.. ثم تقدمت مصر بقيادة "قطز" لوقف زحف المغول عند خط الدفاع الأول، وانطلقت الكتائب والألوية تشق طريقها وسط الخطر إلى الشام.. وتبدأ المواجهة فى "عين جالوت" ويتلقى المغول أول وآخر انكسار لهم.. ولكن المطرقة المغولية عادت ثانية بعد قرن من الزمان مع تيمورلنك ليكتسح فارس والعراق وشمال سوريا حتى دمشق ولكنه عجز دون جنوبها أمام المقاومة المصرية..

والقصة طويلة ومتواصلة..

....

....

ولم أقصد من خلال النقاط السابقة إعادة قراءة للتاريخ أو تنشيط الذاكرة.. فالحديث عن التجربة التاريخية الممتدة للشعب المصرى لا يقتصر على نقاط بعينها أو إشارات عابرة بالخطوة السريعة.. ولكن القصد هنا لفت الانتباه لإحدى ملامح "قواعد التأسيس" والتى خلقت ذلك الوعى المبكر.. وحركة الفكر والإبداعات التى تميز خصائص الشخصية المصرية وصلابتها.. وكانت العسكرية المصرية ودورها نموذجا للتفاعلات التاريخية والحضارية والتى شكلت وجدان وقدرات وطاقات الإنسان المصرى ومنذ بدايات حركة التاريخ.. والعسكرية المصرية تمثل أبرز ملامح الدور المصرى ويمكن الاعتماد عليها - كنموذج - للتعبير عن حقائق هذا الدور وحركته، وتأثيره، وديناميكيته، والتعامل مع التحديات والمستجدات، وتقدير المواقف، والتحرك بكفاءة وردود فعل محتفظة بتوازنها.. ثم وقبل أى شىء أثر العمق التاريخى، وأقصد الاعتبار التاريخى وأثره على عطاء الإنسان المصرى وتراث القيم الأخلاقية والاجتماعية.

ورغم أن العسكرية المصرية طالت عشرتها مع السلاح والحرب والمواجهة أكثر من خمسة آلاف عاما إلا أنها القوة العسكرية الوحيدة فى العالم التى كانت حروبها حروب تحرير بالمعنى القانونى

والواقعى، ولم تكن قوة غزو وتدمير واحتلال.. وفى الأحوال التى خرجت فيها إلى ما هو أبعد من حدودها جنوبا وشرقا كانت مواجهات ردع وتأمين للأمن القومى، أى حرب دفاعية وقائية فى حقيقتها.. والتحركات الخارجية للجيش المصرى وخلال السنوات العشرين تقريبا بين عهدى محمد على وإبراهيم باشا كانت استجابة لضرورات أمنية، واستجابة لأحكام الدور المصرى بالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده، والتفاعل مع ما يحدث من تغيير فى أوضاع المنطقة - وقتئذ - والتى كانت هدفا لأطماع الأقوياء.

وحتى حين خرجت الجيوش المصرية إلى الشام فى عهد فراعنة مصر تحتمس، ورمسيس، فقد كانوا يدافعون عن أمن مصر القومى فى الجناح الشرقى من العمق الاستراتيجى.. ولم تكن هذه الرؤية عقيدة استراتيجية فى فكر فراعنة مصر فقط.. ولكن وبنفس الرؤية تقريبا خرج مماليك مصر عن حدود الوجه الإقليمى الضيق لمصر ليصدون موجات التتار والصليبيين.. وفى نفس النطاق الاستراتيجى لأحكام الأمن العربى المشترك.

وفى كل الأحوال.. كان واضحا أن الموقع هو الذى يتحكم فى الموقف.. وهى ثوابت سبقت نظرية ألمانية فى القرن التاسع عشر تحدثت عن نفس المبدأ.

وفى كل هذا كان واضحا أيضا أن مسئوليات العسكرية المصرية أقرب إلى تلك الكلمات لزعيم الصين ماوتسى تونغ "احملوا السلاح دفاعا عن حدودكم وتأملوا فى نفس الوقت أحوال العالم وراء هذه الحدود.. وافهموا"

....

وهذه بعض ملامح الصورة والتى تحمل الكثير من خصائص الدور المصرى.. واتساقا مع هذه الرؤية كانت العسكرية المصرية تتقدم دائما بالإجابة على التساؤلات الطارئة التى تتحدث بالوهم عن الدور المصرى وإمكانياته وقدراته، وهل يمكن تحجيم أو تهميش هذا

الدور أو حصر نفوذه؟! أو التشكيك فى قدرته على الفعل والحركة والتأثير وفى مواجهة ظروف وأجواء ومتغيرات مستجدة أو طارئة!!
وقد سبق للعسكرية المصرية فى مجالها داخل ساحات القتال أن قدمت للتاريخ حصيلة تجارب متعددة لتنشيط الذاكرة تثبت أن مصر تستعيد حجمها الطبيعى فى أعقاب صدمات الانكسار. وحتى فى هذه اللحظات من عمر التاريخ ورغم كل المصاعب لا يختل التوازن ويبقى اليقين المتجدد بأنها قادرة على الحركة.. وأن تنجز بهذه الحركة مهاما كبيرة على أرضها وحولها.. وقد ترجمت العسكرية المصرية ذلك فى آخر تجربة لها طرحتها أمام التاريخ فى عام ١٩٧٣ بإعادة البناء والعودة بسرعة إلى الميدان لتقاتل.. وما تحملته وحققته تحت النار كان - ولا يزال - معجزة بكل المقاييس.

....

....

والقوة العسكرية - بالفعل - ليست وحدها (القوة) المحركة والدافعة لأى دور لأية دولة.. فى أى عصر وزمن.. ولكنها - فى نفس الوقت - عنصر من أهم عناصره وفى نطاق حقائق وعلاقات وموازين القوة.. وأعتقد أنها واجهة الدور والتجسيد العملى للأهداف والمطامع والهوية والخصائص.. وتأتى فى المقام الأول تعبيرا صادقا عن المفهوم الحضارى والإنسانى للدور. ومن هنا تبرز العسكرية المصرية - تحديدا - فى مقدمة الحديث عن الدور المصرى ولمن يريد أن يفهم ويدرك حقائق هذا الدور وعلى ضوء المنظور وغير المنظور من أثر العمق التاريخى..
ويبدو واضحا من هذه الإشارة السريعة أن الموروث الحضارى داخل وجدان الإنسان المصرى من الوعى المبكر بالقيم الاجتماعية والأخلاقية والإنسانية..وتجسيد العسكرية المصرية لحقيقة أن المصريين كانت لديهم أسباب من الثقة تجعلهم مطمئنين إلى دور الأخلاق فى التاريخ الإنسانى، ولذلك أقام المصرى تاريخه كله على

رفض مالا يستقيم مع خلقه.. وراح ذلك كله يظهر فى ميادين وساحات الحرب من خلال التعامل مع الأسرى والجرحى من العدو ـ وأمامنا ما حدث فى حرب ١٩٧٣ وبشهادة الأسرى الإسرائيليين أنفسهم.. وفى المقابل نجد صورة بربرية.. وحشية، لا إنسانية من قبل الجيش الإسرائيلى، وأمامنا أيضا ـ ملف المذابح الجماعية للأسرى المصريين.. والفرق هنا يرجع إلى ارتباط العسكرية المصرية بدلالات ومعانى الارتقاء الاجتماعى المبكر للشعب المصرى وأهمية البعد التاريخى وأثره.. أما تاريخ العسكرية الإسرائيلية فيبدأ قبل بضع سنوات وعندما صدر قرار "بن جوريون" سنة ١٩٤٩ بضم كل المجموعات ـ العصابات ـ القتالية التى خاضت معارك ١٩٤٨ وما قبلها وارتكبت المذابح ومنها عصابة الهاجاناة، فى جيش واحد هو "تساهل" الجيش النظامى الإسرائيلى..

وبالطبع فإن الجيش الإسرائيلى هو واجهة دولة طفيلية، ويجسد فلسفة مجتمع بأسره بأن الوجود والاستقرار رهن تفوق قوة الردع والبطش، بل وإن ما تحلم به إسرائيل من دور يرتبط أساسا بقدراتها العسكرية.. ولذلك ليس غريبا أن تكون المؤسسة العسكرية هى قلب الحياة الإسرائيلية ذاته، وأن تعتمد عقيدة الحرب الإسرائيلية على كافة الوسائل غير المشروعة.. وإذا كانت العسكرية الإسرائيلية لا تؤمن بعقيدة الاستعداد للتضحية فهى ترتكز غالبا على دعم القوى الخارجية المساندة، وبمعنى انتظار الإنقاذ من الآخرين (اعتمدت على بريطانيا وفرنسا ثم الولايات المتحدة) إذن فالعسكرية الإسرائيلية فى نهاية الأمر نموذج مجسم (ماكيت) لدولة إسرائيل نستطيع من خلاله قراءة ما حدث على أرض الواقع من خطوات صناعة وطن قومى لليهود وما يحدث ويجرى الآن!! وكيف أن الحركة الإسرائيلية ـ أو ما يمكن أن نطلق عليه الدور ـ تقفز خطواتها أو تتراجع وفقا لمعايير المساندة والدعم والإنقاذ من قوى دولية بعينها!! ونظرا لافتقاد الجذور أو البعد التاريخى وأثره فإنها تستعجل النتائج

وتلهث وراء جنى ثمار تحركها بأقصى سرعة ممكنة..فهى حديثة النسب للزمن والتاريخ وتخشى أحكامه!

وإذا كانت العسكرية البريطانية والفرنسية وخلال القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين قد طرحت أمامنا نموذجين لعسكرية المصالح التجارية والمواجهات التقليدية، ودبلوماسية الزوارق المسلحة، والاحتكار القائم على القوة العسكرية.. وأن تبنى كل من الإمبراطوريتين السابقتين - بريطانيا وفرنسا - دورهما على زحف القواعد العسكرية إلى ما وراء البحار والمحيطات فى محاولة لتأكيد زعامة السيادة والسيطرة وبعد أن أصبحت القوة الاقتصادية والسياسية رهن غنائم ومكتسبات القوة العسكرية.. وكيف كان الصلف والغرور البريطانى راجعا لامتداد وتشعب وسيطرة هذه القوة..

....

إذا كانت هذه الصورة من الزمن الماضى القريب تجسيدا لدور العسكرية، داخل المفهوم الشامل للدور وتأثيره وتحركاته ومطامعه وأهدافه.. فإن العسكرية الأمريكية - حاليا - تبقى النموذج الأمثل للكشف عن حقائق الدور الأمريكى وأهداف السيادة الأمريكية وسياسة القوة التى تفرضها على العالم، والتطلع إلى السيطرة العالمية المطلقة، وفرض دور الوصاية الكاملة على شئون العالم، وأن تندفع فى طريق التحرش والصدام وبمفهوم أن الحل العسكرى - الحل بالقوة العسكرية - هو أقصر الطرق لتحقيق الأهداف وفرض الهيمنة، وبالتالى تعددت سلسلة القواعد العسكرية التطويقية إلى جانب سياسة الأحلاف.. وبهذه الرؤية - وكما يقول الدكتور جمال حمدان - أصبحت الولايات المتحدة وبوجودها العسكرى من قواعد وأساطيل جارا غير مرغوب فيه تشترك حدوده مع حدود كل دول العالم تقريبا..

وصحيح - كما يقال - أن الديناميية العدوانية الأمريكية ترجع إلى أن الولايات المتحدة وبحكم ظروف خاصة جدا جغرافية وتاريخية قد

وصلت إلى الصدارة العالمية قبل الأوان وقبل أن تكون مؤهلة لها بالتاريخ وبالتجربة والنضج.. إلا أن المنطق العدوانى والقوة العسكرية الباطشة الطامعة ترجع فى حقيقة الأمر إلى تأثير قواعد التأسيس لدول حديثة النشأة نسبيا اعتمدت على منهجية الشراء والاستئجار والضم وسرعة الانقضاض للتوسع والتمدد..وحين بدأت فى أعقاب حرب الاستقلال ١٧٨٣م فى التشكيل الجغرافى والتكوين السياسى للدولة بالاستيلاء على فلوريدا من أسبانيا، وشراء لويزيانا، من فرنسا، وضم تكساس وانتزاع كاليفورنيا من المكسيك، وشراء جاسدن، وضمت هاواى وجزر ساموا، وشراء آلاسكا وجزر الوشيان من روسيا، واستولت على جزر هاولاند وبيكر وميداوى، وشراء جزر فرجين من الدانمارك، واستئجار بعض الجزر الأخرى.. وهكذا.. وخلال الحرب الأهلية والانطلاق غربا على حساب السكان الأصليين من الهنود الحمر، واستئجار قواعد عديدة فى الأطلسى وداخل شريط الكاريبى..

والشاهد أن عوامل تأسيس دولة عظمى حديثة العهد بالتاريخ وبمعيار الزمن - أكثر من مائتى عام.. تقريبا - لم تخلق للعسكرية الأمريكية عمقا ترتكز عليه باستثناء تجارب الحروب الأهلية وعمليات الضم الإقليمية.. وحساباتها لا تخضع إلا لخطط القوة وأهداف السيادة والأطماع الكوكبية.. وهذه العسكرية المجنحة والعائمة فوق المياه وبقواعدها التطويقية وبتوظيف للتكنولوجيا فى أعلى مراحلها، تحمل ملامح أقرب لصورة سينمائية مبهرة ومثيرة، تستعرض فنون الحرب الخاطفة أو حرب إبادية رهيبة دون مراعاة للمدنيين.. المهم.. ألا تتلاقى الجيوش وجها لوجه!!أما فى حالات المواجهة المتواصلة فإنها تثبت خواءها، وأمامنا تجارب عجز العسكرية الأمريكية فى فيتنام وكوريا - على سبيل المثال - وتلقت دروسا قاسية فى سايجون وسنتياجو وبغداد.

وأعتقد أن العسكرية الألمانية تقترب فى كثير من روح القتال والانضباط وجسارة المواجهة والقوة الذاتية الكامنة فى الطاقة البشرية،

والثقة بالنفس على أساس أن الرجال هم معجزة القوات المسلحة وسرها، والاستعداد للتضحية.. تقترب بهذه الخصائص والملامح من العسكرية المصرية..إلا أن تاريخ العسكرية الألمانية حافل بالغرائز التوسعية والنوازع العدوانية تدفعها ديكتاتورية عسكرية سافرة، متحرشة، مستفزة تريد التوسع وتمجد القوة، مع طغيان الأيديولوجية العنصرية الآرية.. ويرجع ذلك بالطبع إلى تأصيل سياسة الدم والحديد داخل حدود ألمانيا من أجل الوحدة ثم الزحف إلى خارج الحدود من أجل التوسع والانطلاق نحو السيادة.. وخاضت مواجهات ومعارك شرسة وأشد هولا فى محاولة لتحقيق أهداف ومطامع وتدعيم حركة الدور الألمانى!!

....

....

وما سبق مجرد لمسات سريعة، وبهذه اللمسات أريد أن أخلص إلى نتيجة مؤداها أن العسكرية المصرية تمثل أبرز ملامح الدور المصرى - المبادئ والثوابت والمواقف وأثر العمق التاريخى - ولمن يريد أن يقترب من حقائق الدور المصرى وقدرات الحركة والتأثير..

وأن العسكرية المصرية كانت على امتداد سنوات من عمر التاريخ تجسيدا لهذا الدور وقدراته، فمصر لم تفرض دورها على أحد وبالضرورة فإن العسكرية المصرية لم تكن يوما قوة غزو واحتلال.. وأن نظرية الأمن محددة تاريخيا بأن تكون مصر فى وضع من القوة يسمح لها بأن تقرر لنفسها فى الحاضر والمستقبل ما تريد وفق إرادتها وبغير خشية من أى تهديد.. والمسألة قبل أى شىء وبعد أى شىء أن هناك تراثا عميقا من القيم والمبادئ يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ وهو فاعل ومؤثر فى وجدان المصريين وضمائرهم..

□□□□

مصر.. الدور.. والوظيفة

قبل ستمائة عام تقريبا كتب الشيخ الفقيه محمد بن عبدالله الطنجي المعروف بابن بطوطة.. في وصف مصر: «هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، قهرت قاهرتها الأمم، وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم، كريمة التربة، ومؤنسة لذوي الغربة، ولها خصوصية النيل التي جل قدرها»

دعونا نضبط عدسات رؤيتنا على منظور سليم وحتى نضمن لكلامنا أكبر قدر من الموضوعية والإنصاف، فإن الحديث عن دور مصر وباستثناء متفرد يختلف تماما عن الحديث وبصفة العمومية عن أى دور لأية دولة، وحركته ونفوذه وتأثيره، لأن دور مصر له خصوصية، فهو الدور الركن فى هذا العالم.. دور يلفت الانتباه إلى أهمية البعد التاريخى للدور. أهمية البعد الجغرافى للدور. أهمية البعد الحضارى للدور. وأهمية البعد الإنسانى للدور. وهكذا يتسع الأفق وتتضح الصورة.. وفى كل هذا كان دور مصر متواصلا فوق جغرافية سياسية حيّة، ومع سنوات الهبوط والنهوض، وسنوات الضعف والارتقاء، ولذلك فإن دور مصر دون غيره يضعنا أمام ثلاث حقائق:

. الأولى: هى ارتكاز الدور على عبقرية المكان وعبقرية الإنسان..

والحقيقة الثانية: هى ذلك البناء الحضارى كوحدة واحدة لأساسيات الدور وقدراته وإمكانياته ثم تراكم طبقات متلاصقة من حكمة التجربة وحسن التدبير وتقدير الموقف..

والحقيقة الثالثة: أن دور مصر لا يخضع لترتيبات الظروف ومتغيرات الأحداث وبالضرورة فهو لا يخضع لحسابات الطرح أو القسمة أو الجمع وفقا لأحكام المستجدات وتطوراتها، ولكنه دور ارتبط منذ سنوات ما قبل التاريخ بالإنسان المصرى.. وإذا كان هناك من يقول أن مصر بموقعها دولة لها دور، فإن هناك من يؤكد بأن مصر ودورها هبة الإنسان المصرى..

فمصر ومنذ بدايات عمر التاريخ لم تكن فقط مجرد دولة ترتكز على دور. أو أنها دولة ترتكز على موقع.. ولكنها كانت محور الارتكاز بين ذراعى الدور والموقع.. وأدركت مصر منذ بدايات ما قبل التاريخ أن لها دورا.. وبالتحديد أن هناك دورا خلقت له أو خلق لها لا فرق.. وأن لهذا الدور موقعا متفردا أو أن لهذا الموقع دورا متفردا - لا فرق - ولذلك شهدت مصر أول تقنين فى التاريخ

الإنسانى للحدود والتخوم ووضع تدابير الأمن لسلامتها فكان لملوك مصر قبل أربعة آلاف عام ثلاث عشرة قلعة لحماية الحدود الجنوبية وقلاع وحصون ومواقع حراسة على الجبهة الشرقية.. وترسيم الحدود فى هذا الزمن ومع بدايات عمر التاريخ كان لتأكيد سيادة مصر على أراضيها وضمان سلامتها وتنظيم حركة المرور بمراقبة الداخلين والخارجين لدولة تمتعت بالنفوذ السياسى وبالمركز التجارى والثقافى.. وفى كل هذا كان واضحا ترسيم جغرافية الدور المصرى داخليا وخارجيا وفى منظومة واحدة.

....

....

وإذا كانت مصر منذ بدايات ما قبل التاريخ قد أدركت أن لها دورا.. وأن هذا الدور هو أقرب من " الأقدار التاريخية " التى لا تستطيع معها الخروج عن أحكامها، لأن معنى ذلك خروج مصر عن جغرافية موقعها وعن تاريخها - فإنها لم يغب عنها أيضا أنها تستمد تأثيرها من هذا الدور.. وأن قوتها الأساسية فى هذا الدور الذى يمنحها قوة تأثير فاعل ونافذ يتجاوز حدودها الجغرافية.. وهى بذلك - كله - تنفرد بخصوصية النموذج البارز للدول التى تستمد تأثيرها من الدور - من حركة التاريخ وعبقرية المكان - وطبقا لتصنيف الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل (كتاب: السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة) فإن هناك دول طبيعة، ودول وظيفة، ودول دور..

والنوع الأول.. دول تستمد تأثيرها من طبيعتها.. من الثروات الطبيعية فهى تملك من الأرض والموارد على هذه الأرض، ما يمكن لها ويعطيها أساسا لبناء قوتها.. ونموذج هذه الدول: الولايات المتحدة، الصين، البرازيل، الهند، وكل واحدة من هذه الدول شبه قارة.. أرض غير محدودة للزراعة، وثروات معدنية فى باطن الأرض، وإمكانية لبناء قاعدة صناعية متطورة، وبالطبع حجم كاف من

البشر..

والنوع الثاني.. دول تستمد تأثيرها من وظيفة كلفتها بها المعادلات الدولية والإقليمية.. ونموذج هذه الدول: سويسرا والنمسا، ولبنان مثلا وحيث يرتبط تأثير لبنان - بل وبقاؤه - بتراضى أطراف مختلفين فى المجال الدولى وفى المجال الإقليمى مع ضرورة وظيفته فى وسط المنطقة العربية.. وحين يختل تراضى الأطراف ينفجر الوضع فى لبنان!!

وهناك دول تستمد تأثيرها من دورها.. من التاريخ.. وإذا كانت أرضها ومواردها ليست كافية، فإن مسار التاريخ وحركته أعطياها الفرصة لتكون قوة أكبر من مجرد خطوط حدودها..مسار التاريخ وحركته جعلاها قوة إقليمية مؤثرة في ما حولها سواء بانتمائها إليه عضويا أو التصاقها به لسبب من الأسباب.. وأن مصر هى النموذج البارز لهذا النوع من الدول - وربما كان الوحيد - الذى يستمد تأثيره مما حوله وبالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده.. ذلك هو الذى جعل مصر قوة إقليمية بعروبتها، بل أنه فى لحظة من اللحظات - وعلى قاعدة عروبتها - جعل منها قوة عالمية بمكانتها فى بعض حركات العصر الكبرى، كحركة التحرير الوطنى، وحركة عدم الانحياز، وحركة الوحدة الأفريقية وهكذا..

....

وتبقى الدول التى تستمد تأثيرها من طبيعتها - من ثرواتها الطبيعية وما تملك من موارد - تحت رحمة المتغيرات المناخية وحركة التوازنات الاقتصادية!! وتبقى الدول التى يستمد تأثيرها من "وظيفة" تقوم بها، تحت رحمة المتغيرات الدولية وحركة توازنات القوى!! أما الدول التى تستمد تأثيرها من دورها.. من التاريخ.. فهى وثيقة الصلة بديمومة وديناميكية حركة التاريخ التى لا تتوقف.

إذن مصر وبالدرجة الأولى دور، وهذا الدور له "حلم عربى" يشترك فيه بالانتماء مع شعوب أمته.

وهذه الحقيقة لم تكن غائبة عن وعى القوى الأوروبية التى حاصرت "محمد على" وضيقت عليه الخناق، ثم استطاعت ضربه وفرضت عليه معاهدة سنة ١٨٤٠ وهدفها إبعاد مصر نهائيا عن المشرق العربى!!

وهذه الحقيقة - أيضا - لم تكن غائبة عن مضمون رسالة البارون " روتشيلد " عميد البيت المالى اليهودى العتيد إلى اللورد "بالمرستون" رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت - ١٨٤١ - ويقول فيها: "إن هزيمة محمد على وحصر نفوذه فى مصر ليست كافية الآن، هناك قوة جذب متبادلة بين العرب، وهم يدركون أن عودة مجدهم القديم مرهونة بإمكانيات اتصالهم واتحادهم.. أننا لو نظرنا إلى خريطة هذه البقعة من الأرض فسوف نجد أن فلسطين دائما هى الجسر الذى يوصل بين مصر وبين بقية العرب فى آسيا، وكانت فلسطين دائما هى بوابة من الشرق، والحل الوحيد هو زرع قوة مختلفة على هذا الجسر وفى هذه البوابة، لتكون هذه القوة بمثابة حاجز يمنع الخطر العربى ويحول دونه، والهجرة اليهودية إلى فلسطين تستطيع القيام بهذا الدور، وليست تلك خدمة لليهود يعودون بها إلى أرض الميعاد مصداقا للعهد القديم فقط.. ولكنها أيضا خدمة للإمبراطورية البريطانية ومخططاتها، فليس مما يخدم الإمبراطورية أن تتكرر تجربة محمد على سواء بقيام دولة قوية فى مصر أو بقيام اتصال بين مصر والعرب الآخرين.." !!

ولكن التجربة تكررت مع الزعيم الراحل جمال عبدالناصر، وغربت شمس الإمبراطورية البريطانية، وبدأ تيار المد القومى جارفا..

وتلك السطور من خطاب روتشيلد إلى رئيس الوزراء البريطانى فى شهر مارس ١٨٤١ تكشف عن حقيقة النوايا تجاه دور مصر.. وأن قوى السيطرة الأجنبية - ومعها إسرائيل بالطبع - تدرك تماما أن الأمة العربية تكتشف قدرها فى مصر.. وأن قدر مصر أن توجه حركة موازين القوى داخل أمتها.. وأنها " المبتدأ " لكل جملة عربية

تعبر عن حركة الفعل والموقف.. وأن تعبير "الشقيقة الكبرى" لم يكن يوما مجرد تعبير إنشائى عاطفى رسمته كلمات الأدباء أو رتبت صياغته إبداعات الشعراء، ولكن المعنى والمضمون يشير إلى الدور القيادى وإلى الموقع الذى يتحكم فى الموقف.. وإلى القدرات والإمكانيات والمخزون الحضارى الذى هيأ لمصر أن تمارس دورها وبتفويض تاريخى لقيادة حركة أمتها العربية..وبمعنى أقرب لكلمات مسئول ليبى ـ أمين اللجنة الشعبية للثقافة والإعلام "نورى أحمد" ـ بأن مصر شاءت أم أبت هى صاحبة المركز والدور القيادى لهذه المنطقة..

ولكل هذا وغيره الكثير منذ زمن طويل فإن دور مصر هو المشكلة التى تطرح نفسها دائما أمام قادة إسرائيل وزعماء الصهيونية العالمية.. ومن الطبيعى أن تكون المحاولات ـ ودائما ـ لعزل هذا الدور عن محيطه العربى.. محاولات لكى يكون هذا الدور مهزوما من الداخل، أو أن يكون أسيرا لحالة من الإحباط واليأس، أو مصابا بالترهل والضعف، لأن أى "دور" بدون قوة يستند إليها وينطلق منها يصبح مجرد "فرقعة أصوات" تثير الشفقة أو السخرية.

وإذا كان دور مصر الذى تدعمه وتدفع به القوة والإمكانيات والطموحات قد أثار هواجس وقلق ثيران كثيرة هائجة، وعلى امتداد التاريخ ـ فأسرعت تدير لعبة التآمر للحجر على الطموحات والتطلعات، وحجز "الدور" متهالكا وراء الحدود المصرية.. فإن الوضع يختلف كثيرا بالنسبة لإسرائيل لأن ظروف وأسباب وأهداف "تأسيسها" تفرض عليها أن تكون قوة الردع والتحجيم فى مواجهة أية قوة عربية تلتقى معها على الخطوط المباشرة لجبهة الصراع.. وأن أى دور لا يمكن أن يكون لديه الحق فى تعديل ميزان القوى، أو أن يناوئ ويناور أو أن يتقدم لإدارة الأحداث داخل الساحة العربية..

....

....

وبأحكام وضرورات التاريخ والجغرافيا ـ معا ـ فإن الدور القائد والرئيسي على المسرح العربي هو الدور المصرى.. إذن كان لابد من تفريغ هذا الدور من قوته، وسحب هذه القوة إلى "المصيدة".. وأن يكون "الفخ" ضربة إجهاض موجهة إن لم تكن مدمرة لهيئة القوة وعناصرها.. وهكذا كانت المواجهة الأولى بعد سنوات قلائل من تدشين الكيان الإسرائيلي ـ ١٨ عاما تقريبا ـ وكانت ملامح الصورة لمصر وقتئذ ـ مع منتصف الستينات ـ توحى ببشارات حقائق القوة، وكان دور مصر يشمل ساحة عربية ممتدة من المحيط إلى الخليج بمشاعر الانتماء والتضامن مع تصاعد المد القومي العربي وطموحات لا حدود لها تسكن ضمائر الشعوب العربية بأحلام الوحدة وتحرير إرادة وأراضى الأمة.. وفى ذلك الوقت كانت قوة مصر تعنى النهوض بمستويات التنمية وعلى نحو استحق تقدير العالم لتجربة التنمية المصرية والتى اعتبرها البنك الدولى نموذجا فريدا لخطة تنمية لم تعتمد على أية مساعدات خارجية وحققت نسبة نمو متوسطها ٧,٦٪خلال الفترة من ١٩٥٧ ـ ١٩٦٧ وشهدت هذه الفترة أيضا انطلاقة جديدة لقاعدة الصناعات الحربية المصرية واهتماما بالتعاون مع الدول الصديقة فى مجالات الذرة وإنتاج الطائرات واستطاعت العقول المصرية أن تحقق تقدما فى مجال الصواريخ وصنع المحركات النفاثة ويشهد بذلك عدد كبير من أساتذة كليات الهندسة بجامعتى القاهرة وعين شمس والذين شاركوا فى هذه الملحمة لبناء قوة مصر العسكرية.

وبدأت إسرائيل فى إعداد خطوط استراتيجيتها العامة والتى تعتمد على محورين متوازيين يمثلان الأساس وأهداف التحرك ـ وهما حسب تعبير الأستاذ هيكل.

١ ـ سوريا هى عنصر الإثارة الذى يمكن استغلاله.

٢ ـ ومصر هى مركز الثقل الذى يتحتم ضربه.

أى إشعال الموقف على الجبهة السورية وبما يفرض على مصر أن تقوم بأى عمل لنجدة سوريا.. وهكذا بدأت أجواء مناخ ملتهب فى المنطقة تنذر باشتعال النيران.. وبدأ منتصف عام ١٩٦٦ يدفع أمامه بالتوتر على الخطوط الإسرائيلية مع سوريا، وسحبت الشهور التالية - معها - مناوشات متقطعة.. ثم بدأت الرياح الساخنة تهب مع تصاعد حدة التهديدات والتصريحات ومنها كلمات "ليفى اشكول" أمام الكنيست الإسرائيلى "أن إسرائيل قررت أن ترد بالطريقة التى تراها ملائمة على سوريا وأن الطريق إلى دمشق مفتوح".. ثم تداعت مشاهد القصة المعروفة وإلى الفصل الأخير منها الذى يتضمن هزيمة ١٩٦٧ وتدمير آليات القدرة العسكرية وتدمير وتهجير المدن المصرية على خط القناة.. وأصاب الدوار المفاجئ كل شىء، وكانت الضربة موجعة مؤثرة ونافذة بالنسبة لخطط وطموحات التنمية.. وأصبح التركيز منصبا على إعادة بناء القوات المسلحة وكانت الأعباء متضاعفة وشاقة..

وتصورات إسرائيل ومن معها من كلاب الصيد - أنها حققت الهدف.. وأن قوة مصر انتهت وأن الدور المصرى انسحب مهزوما مخذولا منكسرا - أو على أقل تقدير - أن الدور وعناصر القوة قد تم حشرهما فى دائرة التجميد والتأجيل إلى زمن غير منظور.. وحتى حقق الجيش المصرى بمعجزة الصمود والتخطيط والتنفيذ - انتصار إرادة الدور المصرى.. انتصار "القوة" المصرية والعبور بالأمة العربية من حال إلى حال، من "وجيعة النكسة والهزيمة" إلى "نشوة" الانتصار باسترداد الكرامة، والتاكيد عل أن فكرة المستقبل العربى لم تهزم.

....

والشاهد.. أن القوى الدولية الطامعة وعلى رأسها القوة الغالبة الأولى فى العالم.. - الولايات المتحدة الأمريكية - كانت ترى أهمية تحويل دور مصر إلى مجرد وظيفة تكلف بها!! وأتصور أنه أمر

طبيعى ومنطقى جدا أن تمارس أمريكا ضغوطها السياسية والاقتصادية والإعلامية فى محاولة لحصار دور مصر داخل حدود الوظيفة المكلف بها وعند الضرورة وفقا للمصالح الأمريكية!! وهناك فارق كبير بالطبع بين الدور والوظيفة.. فالدور يجسد حركة وقوة غير محدودة وغير محددة، وفعل مؤثر فى منطقة شاسعة تتعدى حدود الدولة.. أما الوظيفة فهى مجرد مهمة مؤقتة سياسية أو دبلوماسية تخضع لحسابات معروفة يمكن تقديرها.. وإذا كانت الولايات المتحدة لا تقنع بأقل من دور الوصاية الكاملة على هذا الكوكب، فكيف يكون هناك دور فاعل ومؤثر لدولة أخرى فى محيط العالم الثالث.. وهى تدرك تماما وتعرف معرفة يقين لا معرفة ظن واجتهاد أن هذه الدولة " مصر " ومنذ البداية كانت القوة الركن فى هذا العالم والقطب الرائد فى ذلك المحيط السكانى من نصف الكرة الجنوبى.. والولايات المتحدة تسعى لفرض تصور جديد بأن يكون الدور فى حالة غياب وأن تكون الوظيفة فى حالة حضور عند الطلب!! وهى أيضا لا تسمح أو لا تقبل بوجود قوة أوسع من حدود دولة، والمسموح به فى هذا النطاق فقط هو التعامل مع دولة لها حدود وإمكانيات يمكن حسابها وتقديرها وتوظيفها عند الضرورة..

وفى مطلع السبعينيات كان "هنرى كيسنجر" - وزير الخارجية الأمريكى الأسبق - واحدا من الذين رأوا هذه القضية بوضوح وعمق، وساعدته الظروف على النفاذ إلى تحقيق هدف عجز غيره عن تحقيقه وهو عزل مصر عن الحركة التاريخية لدورها وعن القوة الكامنة فى هذا الدور، ولأنه أدرك إذا ظلت مصر قوة أوسع من حدود دولة وتجسيدا لتيار القومية العربية والحركة التاريخية لهذا التيار فإن الولايات المتحدة ستكون فى حاجة إلى مصر لحل أزمة الشرق الأوسط.. وإذا استطاع أن يحول مصر إلى حدود وتعداد سكان ومجرد قوة ظاهرة بإمكانيات يمكن حسابها فإن مصر هى التى ستكون فى حاجة إلى الولايات المتحدة لحل أزمة الشرق

الأوسط!!

والحال هكذا.. فإن دور مصر أصبح مثيرا جدا للثيران الأمريكية الهائجة.. وإن كانت الولايات المتحدة بالفعل في حاجة إلى هذا الدور ولكن ليس بمفهوم دور يرتكز إلى دور.. أو دورا يساند دوراً.. ولكن بمفهوم الدور الوظيفة وفي إطار التكليف.. فالولايات المتحدة التي تتطلع إلى السيطرة العالمية المطلقة تتصور أن نفوذ دورها هو الغالب وبعد أن تحولت عناصر القوة في يدها إلى أعلى مراحل غرور القوة حتى تكاد تتوهم أن رسالة دورها حق إلهي مقدس، ويبدو أنها لا تقنع بغير هذا مع السماح فقط لدور الظل للقوى الكبرى الأخرى بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، أو حتى مجموع قوى الاتحاد الأوروبي.. أما في العالم الثالث فإن أي دور متوقع أو مسموح به فهو مجرد "وظيفة" تحدد مهامها وأعبائها وحساباتها الولايات المتحدة نفسها وبما تتطلب المصالح الأمريكية وحركة الدور الأمريكي!! فهم يعتقدون مثلا أن دور مصر في أزمة الخليج الثانية ١٩٩٠ كان مجرد وظيفة مدفوعة الثمن في صورة إسقاط نصف الديون المستحقة على مصر!! فقد كانت الولايات المتحدة تريد ضمان وجود قبول عربي وصمت عربي على الأقل يسهل تواجد دور قوات التحالف الدولية في المنطقة العربية لتحرير الكويت وردع العراق، ثم بالضرورة وجود قبول واسع لأي اتفاق يتم التوصل إليه لتاديب العراق تحت رعاية التواجد الأمني الغربي بقيادة الولايات المتحدة!!

وكانت هذه هي الخطوط التي سارت عليها أفكارهم وتحليلاتهم وتقديراتهم - فيما بعد - بالنسبة لحقيقة الدور المصري.

وعلى هذا الأساس راحوا يستعرضون عضلاتهم قبل أفكارهم.. ولقد خطر لهم أن مصر في النهاية مجرد دولة لها حدود وإمكانات يمكن حسابها جيدا، وهي قبل كل هذا دولة مستقبلة وباحثة عن المعونات والمساعدات الأمريكية وهذا عنصر لا يقبل المزيد من التعليق، وبالضرورة فهي دولة تسبح في نطاق التبعية، وأنه لمنطقي

جدا أن تقوم بمهام "الوظيفة" إذا احتاج "دور" الدولة العظمى ذلك وبمنطق التكليف لا بمفهوم المساندة أو الدور الموازى.. ولا يسمح - مطلقا بالخروج عن النص - وعلى سبيل المثال كانت الحملة الإعلامية الأمريكية - فى الشهور الأخيرة من الولاية الأخيرة للرئيس الأمريكى الأسبق بيل كلينتون - والتى قادها الكاتب فريدمان المقرب للإدارة الأمريكية وجماعات الضغط اليهودية وباعتبار أن مصر قد تجاوزت كل الحدود حين تجاهلت القيام بوظيفة تمهيد الأجواء والأراضى العربية للضغوط الأمريكية على المفاوض الفلسطينى ليقبل عروض ومقترحات قمة كامب ديفيد الثانية والتى كانت على وشك النجاح لولا انفلات الفعل السياسى المصرى بعيدا عن الرؤية الأمريكية!! وأن مصر لم تقدم المقابل للمساعدات والمعونات الأمريكية!! وأتصور أن لهذه الرؤية الأمريكية عدة معان ومدلولات مباشرة وبالغة الخطورة.. وهى إجمالا تدور حول التكليف بمهام الوظيفة عند الضرورة، فهم يتوقعون من مصر مثلا التحرك من أجل توفير دعم عربى إسلامى لأى اتفاق يتوصل إليه الفلسطينيون مع الجانب الإسرائيلى وبرعاية أمريكية.. وهذا هو المتاح والمسموح به.. وبمعنى أن تتخلى مصر عن دورها وعن الحركة التاريخية التى تجسدت فيها، وأن ترهن مواقفها بالرضاء الأمريكى!! وأن على مصر أن تتجاهل حقائق استراتيجية ضخمة - دورها.. ومسئولية هذا الدور - فى سبيل الفوز فى ألعاب تكتيكية لا قيمة لها!!

....

....

والرؤية الشاملة والموضوعية لأصول وجذور القضية على مسار العلاقات المصرية الأمريكية حددها الدكتور جمال حمدان من زاوية "أن مصير الصراع العربى الإسرائيلى سيتوقف أساسا على قوة مصر خاصة بين العرب..وأن مصير عدم الانحياز والعالم الثالث سيتوقف فى التحليل الأخير على مصير مصر.. وأن مصير

الإمبريالية العـالمية سيتوقف على مصيـر إسرائيل.. ويترتب على هذا أيضا أن القطبين النهائيين فى الصراع بين الإمبريالية والعالم الثالث هما على التـرتيب: الولايات المتحـدة ومصر، ولا غـرابة فى هذا فكل منهما يلخص زعامة مجموعتـه، إلى جانب أنه يفسر تركيز العدوانية الأمريـكية على مـصر بالذات.. وهذا العـداء إذ يقوم بين أقـدم دولة هامة فى الـتاريخ وبين أحدث دولة هـامة فى التاريخ.. قـد فرضـته أمريكا فرضا غير مفهوم وغير عادل"..

وماذا بقى ليقال بعد ذلك التوصيف الدقيق؟!

المهم: أن دور مصر سـيظل مثيرا لحسـاسية السياسـة الأمريكية طالما تعدى من وجهة نظرهم حدود الوظيفة.. وإن الصداقة والمصـالح المشتـركة لا تعنى أن يكون هناك دور يجابه ويوازى أو حـتى يساند دور الإمبراطورية العظمى، ولـكن هناك وظيفة يمكن القيام بمهـامها وفقا للرؤية والمصلحة الأمريكية.. وتلك هى القضية التى تخلق أحيانا أزمات مكتومة وأحيانا أخرى كثيرة حملات إعلامية سافرة!!

وهناك ـ لكى لا نخطئ ـ ظروف كثيرة وتحت ضـغوط خارجية، وفى ظل حـالة من السيـولة الفكرية، و" المثـاليـة " السيـاسيـة، أو بمعنى إدعاء الحكمـة ـ وهو كما يقولون إدعاء تضـيق به الصدور ـ وهناك أسباب أخرى خارجية وداخلية، أصـبحنا معها نتجاهل دورنا، ومفهوم وقدرات وحدود الدور وتأثيره، والحركة التاريخية له.. وإلى تلك الدرجـة التى جـعلتنا ـ عل سـبيل المثال ـ نفـتح أبواب الحـوار والمناقـشـة فى مطلع عـام ٢٠٠٠ مـع الكاتب الأمـريكى اليـهـودى "توماس فريدمـاى" المقرب من الإدارة الأمريكية الجـمهورية ـ وهو يطرح رؤيتـه حول المطلوب من مـصـر فى مرحلة مـا بعد السـلام، وحـتى لا تصـبح مصـر " تايوان " أخـرى!! ودخل كـثيـرون ممن يحملون لقب النخبـة من المفكرين والمثقفين المصريين فى جـدل عقيم مع "فريدمان" حـول دور مصر، والإفتاء بالتصـورات والتوقعات.. وهذا فى حـد ذاته فـعل مـؤسف!! وقـد سـبقـت "أوهام" الكاتب

الأمريكى فريدمان، تصورات "شيمعون بيريز" رئيس الحكومة الإسرائيلية وقتئذ، ورئيس الدولة العبرية حاليا - بأن المستقبل لدور إسرائيل فى المنطقة، وهو دور - كما يزعم - يرتبط بحقائق القدرات والإمكانيات، وبصورة " جزيرة غنية ديمقراطية " وسط محيط فقير عشوائى.. وإلى هذه الدرجة بلغت أوهام "بيريز"!!

....

....

وبهذا النوع من الأفكار يتحدثون عن دور مصر!؟

وأحيانا أعذرهم.. فليسوا وحدهم الذين لا يعرفون ما هو سر هذا الدور؟ وأن حسابات وحقائق وعلاقات وموازين الدور المصرى أعقد بكثير من مجرد معادلات وتصورات يطرحونها برغبة ملهوفة لإخضاع الدور لشروط ومتطلبات المنافسة كما يتصورون.. ولشعارات جديدة تمارس نشاطها بالتشكيك فى هذا الدور القيادى!! وهى فى الجملة وجهات نظر يتم تسويقها فى "مناسبات" شبه موسمية أحيانا، وفقا لما يجرى على الساحة السياسية من أحداث ووقائع.. ولذلك فهى رؤية ذات طبيعة خاصة تكشف أفكار ومواقف أصحابها.. سواء كان "توماس فريدمان" المبشر بطوفان العولمة وسيولها الجارفة وملامحها الأمريكية الكاسحة التى تفرض على مصر الاستجابة لحركتها وإلا تحولت إلى "تايوان" جديدة كجزيرة منعزلة محاصرة بلا دور!! أو "بيريز" المنظر لكيان الشرق أوسطية والدور الاقتصادى الفاعل للتعاون الإقليمى تقوده جزيرة غنية نظيفة وسط محيط فقير وقذر.. متصورا أن الدور فى مجال القوة والقدرة هو لإسرائيل، وأن دور مصر فى المرحلة القادمة سوف يفقد مهامه ووظيفته فى محيط آليات السوق العالمى وسلطان الاقتصاد وبالضرورة فإن أى دور لا يؤدى وظيفته ينكمش ويضمر وذلك قانون البقاء ذاته!؟!

هذه بعض التصورات وعلى قائمة حسابات الوهم!!

وهى تصــورات بالـوهم وبســوء النوايا.. تخلط بـين الدور وبين مهام "الوظيـفة".. وتبنى أحكامها على "الدور" فى لحــظة تاريخية بعينها أو مع مرحلة وحقبـة زمنية محددة!! وأن حركة الدور وتأثيره وتوجهـاته، أو مواقف الدول وحـساباتهـا تختلف من مـرحلة لأخرى عشوائيـا أو بفعل عوامل طارئة مســتجدة؟! وقد يكون هذا صحـيحا ومقبـولا إذا كان الحديث عن دول حديثة النشـأة والتوطين ـ أمريكا وإسرائيل مـثلا ـ ولكن دور مصـر ـ يبقى ـ ومــهما كـانت تأثيرات وانطباعات حقـبة زمنية معينة تعيـشـها، ومهما كـان حجم الضـغوط الخارجـية أو الاستسـلام لها، ومهـما كانت قـوة العواصف والرياح التى تهب بمتغيرات ومستجدات طارئة، أو مهما كانت درجة تفاعلات واحتكاكات حركة موازين القوى فى العـالم.. تبقى مصر ـ كما يقول العالم الجليل الراحل الدكـتور جمال حمـدان ـ أقدم وأعرق دولة فى الجغرافيا السياسية فى الـعالم، وهى غير قابلة للقسمة على اثنين أو أكثر مهما كانت قوة الضـغط والحرارة.. ومصر هى "قدس أقداس" السياسة العـالمية والجغرافيا السيـاسية كما أن مصر السـياسية هى من خلق الجغرافيا الطبيعية فهى نبت طبيعى بحت.



القادة.. والدور
خصائص العلاقة بين الدور والزعيم

انا إن قدر الإله مماتى

لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

ما رمانى رام وراح سليما

من قديم عناية الله جندى

كم بغت دولة على وجارت

ثم زالت وتلك عقبى التعدى

شاعر النيل حافظ إبراهيم

إذا كـان التـاريخ هو الذى يمـلى على دولة مـا "دورها".. فـإن مصر - أقـدم دولة كائنة فى العالم المعـاصر - ومن منظور تاريخى وجغرافى هى بالدرجة الأولى "دور".. وبمعنى أننا نؤثر فى التاريخ كـما يؤثر فـينا.. وإذا كان للتـاريخ دور فى تكوين البنيـة الثقـافيـة للشعوب، والأنماط والأنساق السـياسية والاجتماعيـة والاقتصادية.. وإذا كـان للتـاريخ دور فى تشكيل الملامـح الثـقافـيـة والوجـدانيـة للشـخصية القومية للإنسان المصرى.. فإن تجليات الإرادة الإنسانية إزاء موجـات التحـديات الجبـارة التى واجهت الأمة المصـرية فى كل عصـورها الحضـارية المتعـاقبة - ومع مراعاة التكامل فى ربط حلقات التاريخ المصرى منذ أقـدم العصـور وحتى العـصر الحديث - تكشف عن حقيقة:

أن الإنســان المصــرى أولا.. والموقع ثانيـا.. همـا القوة الخـالقـة والدافعة لهذا الدور "التاريخى" وتميزه وتفرده.

وأن الوعى التاريخى والحضـارى الـعام لدى الشـعب المصرى، هو الذى جعل الدور يـرتبط بقيادة تاريخـية تسـتجيب لـداعى التاريخ.. قيـادة لديهـا رؤية ومقـدرة على الاتصال بحـقائق التـاريخ وأحكام الجغـرافيـة.. وفى كل الظروف الطارئة والجارحـة كان "الدور" هو الذى يصنع "الرجـال".. يدفع أمـامه بالقـيـادة.. ورجل له كفـاءات شـخصية تتيح له أن يستوعب آمال وأهداف وتطلعات المجموع.. رجل يتولى مـهمة الـتصدى للتـحديات الجبـارة، ويعيـد تصحيح مـسـار التـاريخ.. حـدث هذا على امـتـداد التـاريخ المصـرى.. وفى مـصـر الفـرعونيـة وثق الأحـداث والوقائع الدكـتـور ناصر الأنصـارى فى (موسوعة حكام مصر):

مثلا.. فى عصر الاضمحلال الأول (حوالى ٢١٨٠ - ٢٠٦٠ ق.م) حـين سادت الفـوضى، وعم الاضـطراب وانحـدر الفن.. تمكن أمـراء طيـبة أن يوحـدوا البلاد ثانيـة وينهـضوا بهـا، لتبـدأ مرحلة جـديدة باهتمـام الملوك بالسياسة الخـارجية، وسيـطروا على النوبة السفلى،

ونفذوا مشروعات ضخمة.

وفى عصر الاضمحلال الثانى (حوالى ١٧١٠ - ١٥٦٠ ق.م) حين وقعت مصر تحت احتلال الهكسوس ١٥٠ سنة وقد ساعد وجود الهكسوس على أن يجعل من الشعب المصرى للمرة الأولى فى تاريخه شعبا محاربا منتصرا فى سبيل الحرية بقيادة أمراء مدينة طيبة "سقنن رع" وابنيه "كامس" ثم "أحمس".. وحطموا كل ما يمت لهم بصلة حتى يتم محو ذكراهم من النفوس، ولا يبقى لهم ذكر.. وبعد حرب التحرير دخلت مصر فى طور حربى عظيم، وتم وضع حجر الأساس لإمبراطورية كبرى امتدت من سوريا وأعالى الفرات إلى الشلال الرابع فى السودان.. وأقيمت المعابد الهائلة مثل الكرنك والأقصر، وعاشت البلاد فى أزهى مظاهر الرفاهية والفن والعلوم والتجارة.

وإذا كان فرعون مصر "أحمس" - ١٥٩٠ - ١٥٤٥ ق.م - قد تصدر المجموع فى مواجهة تحديات عسكرية، وأعطى لأمته يقينا متجددا بأنها قادرة على تصحيح الأوضاع وتحرير البلاد من الهكسوس، وأن ينجز بهذه الحركة مهاما كبيرة على أرض مصر وحولها.. فإن الصورة الأخرى للقيادة التى ارتبطت بدور مصر تتجسد فى "تحتمس الثالث" ويجمع المؤرخون على أنه أول قائد حربى فى التاريخ وضع خطة تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين، وكان لديه مجلس أركان حرب يتشاور معه فى وضع الخطط الحربية، وفى عهده سادت مصر وحضارتها فى إمبراطورية شاسعة الأرجاء، وعم الثراء والرخاء البلاد.. وكان يتمتع إلى جانب عبقريته العسكرية بشخصية قوية تتميز بالنبل الرفيع والعدالة والتدين والصدق، وكانت سياسته الداخلية تقوم على إقرار النظام ورفاهية الشعب..

وفى عصر الاضمحلال الثالث (من ١٠٨٥ إلى ٣٣٢ ق.م) انفصلت عن الإمبراطورية المصرية معسكراتها فى الشمال والجنوب،

وطمع فيها جيرانها الليبيون، وملوك النوبة، وطمع فيها الفرس.. وراحت محاولات السيطرة على مصر تتعثر، وكانت روح الاستقلال الوطنى يقظى وتدفع إلى المقدمة بقيادات تستوعب حلم الأمة وتحرك هممها وتجسد إرادتها: "بسماتيك الأول" وقد تمكن من طرد ملوك النوبة وامتاز عصره بحركة إحياء التقاليد الفنية للدولة القديمة وتشجيع التبادل التجارى مع الإغريق بعد أن استعان فى حربه بفرقتين إغريقيتين.. و"أميرتى" وكافح ست سنوات حتى تمكن من انتزاع السلطة من الفرس الذين حكموا مصر ١٢٤ عاما.. وظل حكام مصر فى حروب دائمة مع الفرس.. وقاد "نقطانب الأول" حركة الثورة الشعبية وحرر مصر من حكم الفرس.. ولكن لم ينته الصراع على دور مصر..

وحين نتحدث عن دور القائد أو الزعيم (الحقيقة المحدودة) فإننا فى الواقع نتحدث عن دور مصر (الحقيقة الأكبر) عن أساس الحركة التاريخية كلها التى تتجاوز كل القيادات والأفراد الذين تصدروا المقدمة بإرادة صلبة وقدرة على الحشد وفى وقت أزمة أو محنة عارضة.. ولكنهم بالضرورة لم يصنعوا دور مصر، وإنما كان دورهم فى حماية هذا "الدور" وحركته التاريخية، واتساع حدوده، وفرض نفوذه وتأثيره، وأن تظل روح مصر يقظى فى كافة المجالات السياسية الاقتصادية الاجتماعية..

حسابات دور مصر أكبر وأعقد من ذلك.. وهذا لا يقلل من قيمة دور القائد أو الزعيم التاريخى حتى لو كان المرجع الذى يستند إليه هو دور مصر.

....

....

والشاهد.. أنه على مدى أكثر من خمسة آلاف عام، وجدت مصر بحدودها الجغرافية المعروفة تقريبا، وعليها شعبها، وكانت لها حكومتها دون انقطاع فى أى حقب تاريخها، ومما اقتضى خلق

حقائق جديدة تتسق مع التاريخ.. وأن التفاعلات التاريخية والحضارية جعلت شعب مصر واحداً من شعوب أمة كبيرة يربطها نفس المستقبل ويجمعها نفس المصير.. وهذا هو سر انتصار مصر، وسر هزيمة أعداء لها كانوا أقوى منها..

وحين اجتاحت جيوش "الفرس" مصر للمرة الثانية فى نهاية حقبة آخر فرعون مصرى "نقطانب الثانى" ٣٥٩ ـ ٣٤١ ق.م وأنهت حكمه.. كان التنازع على السيادة بين الإغريق والفرس يدور حول قواعد الدور المصرى ـ الموقع والثروة ـ وكان الإغريق يجتهدون فى الانتقام من عدوهم التقليدى، وكل منهم له عقيدة اجتماعية تتصادم مع عقيدة الآخر، وهذه العقائد مسلحة وتدفع بالجيوش أمامها.. ولم تكن المواجهة بعيدة عن موقع مصر حين دخل الإسكندر ٣٣٢ ق.م، وأسس مدينة الإسكندرية، وأمر بأن تتخذ عاصمة لمصر.. وبرؤية القائد الإغريقى الشاب أن تكون مقدمة الدولة التى لها دور فى مواجهة المدن اليونانية على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط.. وكان على وعى فى زمن ما قبل التاريخ أن قوة مصر الأساسية فى دورها.. ويقول المؤرخون أنه كان مغرما بالبحث عن سر " روح مصر" حتى لو كانت فى قبضة الآخرين!! وكان الأباطرة الرومان ـ أيضا ـ بعد حكم البطالمة، على وعى بحقيقة أن مصر تتمتع بموقع جغرافى هام وبثروة طائلة خاصة بالنسبة لروما التى كانت تعيش على قمح مصر.. لذلك وضعوا لمصر نظاما خاصا متميزا عن الولايات الأخرى، فكانت تتبع الإمبراطور مباشرة، وكان حاكمها ذو مرتبة أرفع من باقى حكاَم الولايات..

كانت قوة مصر الأساسية فى الموقع.. فى دورها.. وما يمكن أن تقدمه لمن يتولاها كقاعدة عسكرية اقتصادية كبرى..

والدور ليس ماديا ملموسا، وليس مرئيا، ولكن حساباته هائلة.

وكان سر " روح مصر" الغالب، أن كل من وفد إليها طوال تلك السنوات من عمر التاريخ، لا يستطيع أن يغترب فى مصر، بل يصبح

جزءا منها بالواقع، حتى وإذا لم يكن جزءا منها بالطبيعة.. وكان الزمن نفسه يسمح لمصر بما لم يعد يسمح به لغيرها، وهى تحت حكم الآخرين نحو ٩٧١ عاما..وحين قضى الشعب المصرى قرابة ٣٠٠ عام تحت حكم البطالمة و٣٥٣ عاما تحت حكم الرومان، واستمر العصر البيزنطى نحو ٣١٨ عاما.. وحتى حين تحولت مصر من إحدى ولايات إمبراطورية بيزنطة إلى إحدى ولايات الدولة العربية الإسلامية.. ثم حين كان حكام مصر يتمتعون فيها بشبه استقلالية عن دولة الخلافة الإسلامية، مثل العصر الطولونى، والعصر الإخشيدى، والعصر الأيوبى.. أو تلك الأوقات التى كانت فيها مصر دار خلافه مثل العصر الفاطمى، أو العصر المملوكى عندما تمت استضافة الخلافة العباسية فى القاهرة بعد انهيارها تماما فى بغداد ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ووصل إلى القاهرة بدعوة من ركن الدين بيبرس أول خليفة عباسى يؤسس حكمه فى القاهرة "أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر العباسى" وكانت للخلافة العباسية فى مصر دور مظهرى ولم يكن يتدخل فى تصريف شئون البلاد، وأصبح كل عمله إسباغ السلطة الدينية على سلاطين المماليك لتوطيد دعائم ملكهم!!

....

ورغم الأوضاع القلقة التى كانت تواجهها مصر، وتحدث هزات وخلخلات عند قوائم المجتمع.. لم يغب عن مماليك مصر الوعى الاستراتيجى بدور مصر، أو بإحكام الموقع والتراث الحضارى، وأن هذا " الدور " له حلم عربى يشترك فيه بالانتماء مع شعوب الأمة العربية الإسلامية.. وبرز دور الفرد التاريخى من بينهم حين أبلى "قطز" بلاء حسنا لصد موجات التتار عن الأمة، وانتصر عليهم.. وكان "بيبرس" من أعظم سلاطين المماليك إذ اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية، وأقام النظم والقواعد التى أدت إلى تقوية أسس "موقع" مصر.. وإذا كان "الأشرف بن قلاوون" قد اهتم

"بالموضع" وعنى بشئون مصر الداخلية وتسهيل سبل التجارة الداخلية، وإعداد جيش قوى.. فإن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان أكثر اهتماما "بالموقع" وبالأحلام الواسعة بعد أن فتح أخيه "الأشرف خليل" عكا، وحرر صور وصيدا وبيروت وطرطوس من أيدى الصليبيين، وبسط نفوذه وسيادته على الأقطار المجاورة حتى وصل إلى مكة والمدينة، وأقيمت له الخطبة فى مصر وسوريا وطرابلس الغرب..

....

....

وفى كل الأحوال كان المناخ العام للدور ـ دور مصر ـ يمهد لدور الرجال..

وكانت مصر فى كل هذه المراحل من تاريخها مهيأة لدور الزعيم أو القائد أو الرجل الذى يستوعب آمال أمته فى لحظة تاريخية معينة.. دور من يستجيب لداعى التاريخ.. وبكل مزاياه وبكل نواقصه..

وهذا ما حدث ـ مثلا ـ مع "محمد على باشا" فى لحظة تاريخية صاحبت جلاء الحملة الفرنسية عن مصر بعد بدايتها بثلاثة أعوام وشهرين، وحين تنازعت السلطة فى مصر آنذاك ـ كما يقول المؤرخ عبدالرحمن الرافعى ـ ثلاث قوى مختلفة المصالح: تركيا والتى فتحت مصر بحد السيف قبل ثلاثة قرون، فأرادت أن تبقى مصر كإحدى ولايات السلطنة العثمانية.. ثم إنجلترا والتى كانت تطمع فى احتلال المواقع الهامة على شواطئ مصر فى البحرين المتوسط والأحمر لتضمن لنفسها السيادة فى البحار وتأمين طريقها إلى الهند.. والقوة الثالثة "المماليك" والذين سبق لهم حكم مصر قبل الفتح العثمانى، وكانت لهم قوة لا يستهان بها إبان الحكم العثمانى نفسه..

والقوى الثلاث تجاهلت ـ فى تنازعها على السلطة ـ العامل القومى، ولم تحسب حسابه، لكن رجلا واحدا أدرك مدى تأثير هذا

العامل لمن يستعين به.. وهو "محمد على" قائد الكتيبة الألبانية فى الجيش التركى فى مصر.. فتقرب إلى القوى الوطنية الشعبية، وفى ١٧ مايو ١٨٠٥م وصل محمد على بفضل إرادة القوى الشعبية فى مصر إلى منصب الوالى، ولم يجد الباب العالى ـ فى تركيا ـ أمامه إلا إصدار فرمانا بذلك..

وربما كانت مصادفة تاريخية أن يأتى الرجل إلى السلطة بقرار شعبى.. لا بالوراثة، ولا بالانقلاب.. ولكن بتفويض شعبى من ممثلى القوى الوطنية الشعبية فى مصر.. وهو مدرك تماما فى هذه اللحظة التاريخية بأحكام الجغرافية والتاريخ وعقيدة مصر الإستراتيجية، وأن مسار التاريخ وحركته أعطيا هذا الوطن الفرصة ليكون قوة أكبر من مجرد خطوط حدوده.. وأن دور مصر يستمد تأثيره مما حوله وبالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده.. وأن دور مصر يخلق منها قوة عالمية بمكانتها كقوة إقليمية مؤثرة فى ما حولها.. وأعتقد أنه كان مؤمنا بأن دور مصر.. قدر تاريخى.. وأن الأقدار التاريخية تحتاج إلى رجل تاريخى.. فبدأ تدشين نهضة مصر الحديثة وإعادة بناء قوتها الذاتية عسكريا وعلميا، وتنظيم الإدارة والأمن، وتأسيس أكبر حركة إصلاح اقتصادى، وتنوير ثقافى.. ثم اتجه مع أحلام الدولة العربية الكبرى إلى خارج حدود مصر، وأرسل جيشه إلى الحجاز فاستولى عليها، ثم استولى على النوبة جنوبا، وعلى جزيرة كريت، ثم فلسطين والشام، وعبر جبال طوروس، وكانت أحلامه تستند إلى حقيقة أن مصر هى القوة المحلية الوحيدة القادرة على تحدى المطامع المرسومة للمنطقة بعد تحلل الدولة العثمانية..

وبرز دور مصر فوق قاعدة تأسيس لدولة حديثة قوية، ومع التفوق العسكرى.. ولكن هذه الانتصارات خارج حدود مصر، وملامح النهضة الحديثة داخل حدودها، جعل القوى الدولية الطامعة تتحسب للخطر القادم.. وحاصرت محمد على وضيقت عليه الخناق،

ثم استطاعت ضربه وفرضت عليه معاهدة ١٨٤٠ وهدفها إبعاد مصر عن المشرق العربى، وتحجيم دورها، بأن تكون مصر جزءا من الدولة العثمانية، وأن تدفع الجزية سنويا للسلطان، وألا يزيد جيشها عن ثمانية عشر ألفا، وألا تبنى سفنا حربيا!!

....

وحين اختل التوازن الاجتماعى فى مصر، وتصدع البنيان الاجتماعى والاقتصادى فى ظل أجواء من الفساد السياسى.. وحاصرت الشعب المصرى ثلاثية الفقر والجهل والمرض، ومع نهب حقوق "الحفاة" من سكان القرى والنجوع والأقاليم النائية.. وترهلت مؤسسات الدولة تحت سطوة مصالح أصحاب الثروة والنفوذ، وهشاشة سلطة الملك فاروق الذى انصرف عن التفرغ لشئون الدولة.. وأحاطت شبهات الفساد والخلل الإدارى بالجيش المصرى، ومع تحكم سلطات الاحتلال البريطانى فى موارد ومصير البلاد التى ظلت محتفظة باستقلالها غير الكامل عن بريطانيا، وانتشرت الفوضى.. وكانت الأوضاع العامة للمنطقة العربية تتحكم فيها وفى شعوبها سطوة إمبراطوريتين كبيرتين: بريطانيا وفرنسا، وورءاهما الولايات المتحدة الأمريكية تؤيد وتدعم وعند اللزوم تتقدم..

وفى هذا الإطار الحديدى من سطوة وسلطان قوى السيطرة الأجنبية، ومعاناة تردى وتدهور الأوضاع الداخلية.. كانت مصر مهيأة تاريخيا لدور الفرد التاريخى، القائد أو الزعيم.. رجل له خصائص وموارد إنسانية وكفاءات شخصية تتيح له أن يستوعب آمال وتطلعات الآخرين من مجموع الشعب، وأن يتولى مهمة تحقيق مجموعة أهداف مشتركة.. وهنا برز دور جمال عبدالناصر، رجل استوعب حلم الأمة، وجسد إرادتها، وحرك هممها، وأعطى أمته يقينا متجددا بأنها موجودة.. وأصبح الرجل رمزا لتيار عريض ممتد عبر كل الحدود السياسية فى العالم العربى.. وكان الرجل بالطبع ـ مدركا وبوعى استراتيجى لعبقرية الموقع وبأحكام الدور المصرى،

وبضـرورات وحتـمية الارتباط وبالانتـمـاء للموقع الأكـبر، للعـمق الاسـتـراتيجى العـربى وعلى امتـداد ساحة من المحـيط إلى الخليج، ودون إغفال للأهمية الاستراتيجية للدائرتين الإفريقية والإسلامية.

....

....

وكانت تجربة عبـدالناصر كما يقول الأستـاذ هيكل (كتاب حديث المبادرة) أمام مجـموعة اختيارات اجـتماعية وسيـاسية ودولية.. فى الداخل كـان الاختـيار طريقـا عربيـا إلى نوع من الاشتـراكيـة، وهو الخيار المتاح لبلد كان متـوسط الدخل القومى للفرد فيـه حوالى ٤٧ جنيهـا فى بداية التجربة - وإذا تذكـرنا التفاوتات البشـعة فى توزيع الدخـول وقـتـها أدركنا حـجم المشـكلة الاجـتمـاعـيـة بعـد المشكلة الاقتصادية - وترتب على ذلك خط معين فى التنمية الشاملة استطاع على سـبيل المثـال فيـما بـين سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٦ أن يعطى زيادة سنوية فى الدخل القـومى بمعدل ٦,٧ فى المائة طبـقا لتـقرير البنك الدولى بتاريخ ٥ يناير ١٩٧٦، وهى نسبة لم يكن لها مثيل فى العالم النامى كـله.. وإذا وضعنا هذه الزيادة أمام مـشـهد التـحولات الاجتماعية الضخمة التى عايشتها مصر فى الستينيات لرأينا صـورة عظيمة لشعـب يبنى حياته من جديد بعمله وجهـده، خاصة إذا ذكرنا أنه فى تلك الظروف لم تكن مصر تطلب من أمتـها العربية عونا، ولا كانت تلك الأمة - بصـراحة - قادرة على مد يد العـون إلى مصر، بل ربما كان العكس هو الصحيح.

ولقد امتـزجت التجربة الداخلية المصـرية مع مطالب الأمن العربى الشامل، فـأملت على مصر فى ذلك الوقـت سياسة خـارجية مـعينة اختارت طريقا مسـتقلا، ولا منحازا فى المجال الدولى، وتمكنت من بناء توازن إقليمى وعالمى استطاع تمكين مصر من قيادة قوى الدفاع عن المصير العربى، وانتصرت - أحيانا - كما حدث سنة ١٩٥٦.. ولم تنتصر أحـيانا كما حـدث سنة ١٩٦٧.. وكان معيـار أصالة الالتزام

المصرى أنه فى النصـر لم يتكبر وفى غير النصـر لم يتخاذل، وإنما راح يحشد جهده ويعبئ قواه ويواصل مسيرته..

....

والشاهد.. أنه فى اللحظات التاريخية الحاسمة والمصيرية، كان "دور" مصر يمنح الشرعية لدور الفرد القائد أو الزعيم.. دور صانع القرار فى مرحلة تاريخية، يحدد خطوط استراتيجيتها العليا، مدركا لضرورات الأمن وضرورات المصالح القومية.. ولكنه يبقى مجرد مرحلة فى تاريخ طويل سابق، وفى تاريخ ممتد لاحق، ولكن تاريخ مصر لم يبدأ به ولن ينتهى به.. وطالما أن أحكام التاريخ والجغرافية هى أولى الثوابت.. وأن المعادلة الصحيحة للدور المصرى: عبقرية المكان وعبقرية الإنسان..

هكذا كان دور الرجل بفعل أحكام الجغرافية والتاريخ.. وبصرف النظر عن اعتبارات حيوية أخرى.

هذه هى الحقيقة..

وأتصور أننا مطالبون بأن نلقى نظرة جديدة على دور الرجال من حكام مصر وعلى مسرح الدور المصرى، وسوف نجد:

أولا: أن الحالة المصرية تختلف عن غيرها من دول وإمبراطوريات ارتبط دورها بزعماء فى مراحل زمنية متعاقبة..عابرة، ومؤقتة، وهؤلاء الرجال خلقوا دورا لبلادهم وربما فتحوا أمامها أبواب مستعمرات خارجية وربما فتحوا أمامها طريقا للسيادة والنفوذ طوال حقب تاريخية محددة.. ولكن يبقى دور هذه الدول أو حتى الإمبراطوريات هو "صنيعة" أدوار زعمائها وأهدافهم ومطامعهم أو حتى تحالفاتهم الخارجية.. والدول التى يعتمد دورها على دور الفرد القائد أو الزعيم تواجهها غالبا مشاكل اجتماعية حافلة بتناقضات ساخنة وحادة!! أما دور مصر فهو الذى يخلق ويحكم دور القائد أو الزعيم والذى يؤدى مهمته فى لحظة تاريخية قد تكون فاصلة استجابة لداعى التاريخ، ويستوعب بالضرورة أحكام وضرورات

وحجم دور مصر الذى استقر بناؤه على ثوابت.

ثانيا: أن دور الفرد التاريخى فى مصر يجىء فى لحظة هى أقرب من الأقدار التاريخية.. خارج إطار التوقعات.. ولذلك كانت المتغيرات المفصلية فى تاريخ مصر أحداثا مباغتة للآخرين، وقد تحمل دهشة المفاجأة للشعب المصرى نفسه.. ودائما يأتى التوقيت والتنفيذ خارج أية احتمالات قائمة، وقد لا تنبئ الظروف والأحداث - فى زمنها - بإمكانية تحقيق ما يحدث من تغيير، وإعادة تصحيح مسار التاريخ المصرى.. وقد حدث هذا - مثلا - حين دخل الهكسوس مصر، وشيدوا عاصمتهم "أواريس" فى شرق الدلتا، واستمر احتلالهم حوالى قرن ونصف قرن من الزمان.. وتنطلق شرارة ثورة مصر ضد الهكسوس ويطاردهم "أحمس" ١٥٩٠ - ١٥٤٥ ق.م بعد أن هاجم عاصمتهم "أواريس" ويحاصر آخر معاقلهم "شاروهين" قرب العريش لمدة ثلاث سنوات ويحرر البلاد منهم، وتبدأ مرحلة جديدة لإمبراطورية مصرية عظيمة..

وحين تقدم المغول إلى الشام مستهدفين مصر فى النهاية والتى كانت تشهد صراعا على السلطة بين المماليك بعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وأدى الصراع إلى شبه فراغ لموقع السلطان مع مؤامرات العزل والنفى والسجن والقتل، وفى مقابل الأجواء القلقة غير المستقرة فى مصر كانت الخبرة القتالية الطويلة للمغول تتحفز لاقتحام مصر وفى ظل الصراع الصليبى المستمر.. ولكن ما حدث.. أن تقدمت مصر المملوكية بقيادة "قطز" لتعطى المغول أول وآخر انكسار لهم فى عين جالوت التاريخية ١٢٦٠م.. وحتى حين تحولت مصر إلى ولاية فى الدولة العثمانية واحتفاظ المماليك بعصبيتهم، وقد عظم نفوذ وسطوة "البكوات" منهم وأصبحت "الجباية والاتوات" همّا ثقيلا على كاهل الشعب المصرى، وزادت حدة الأطماع فى مرحلة تمزق السلطة بين ثلاث قوى طامعة، لم يكن أحد يتوقع أن يكون هناك صوتا للقوى الشعبية المصرية التى

أرهقتها سنوات من القهر والظلم.. ولكن العامل القومى كان حيا فى الوجدان المصرى، وترفع إرادة القوى الشعبية محمد على إلى منصب الوالى، وتبدأ سنوات نهضة مصر الحديثة..

....

وحتى ما حدث فى ذلك المساء المتأخر من يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ كان خارج التوقعات حين قاد مجموعة من شباب الضباط الأحرار - بقيادة جمال عبدالناصر - وهم يدركون حجم المخاطرة المحيطة بهم، وحجم وسطوة الأطراف المؤثرة فى ذلك الوقت واللاعبة الأساسية فيه من القصر وأجهزته الأمنية وتساندها إدارة أمنية كبيرة، ومن السلطة الغالبة للاحتلال البريطانى لمصر وحشوده العسكرية، ومن الفعل النافذ لحركة وتحركات السفارتين البريطانية أولا ثم الأمريكية، وبالضرورة لم يكن يغيب عنهم ولاءات القيادات العليا فى الجيش للنظام، إلى جانب المصالح المتشابكة والمتوحشة بين السلطة وبين الطبقة النافذة والحاكمة بما تملك من إقطاعيات ومن عليها، ومن رؤوس أموال وما لها من سطوة ونفوذ فى البلاد، وهى تتحرك نحو الانهيار وأن الاتفاق العام بأنه لا أمل فى شىء فى مصر طالما الملك فاروق موجودا..

وكانت هناك أهداف محددة وأحلام مشتركة كما يقول د. ثروت عكاشة - وهو أحد الذين شاركوا فى صنع الثورة - لم نكن خلايا معزولة عن الشعب ولا عن أمانيه، بل كنا أداته المحققة لتطلعاته، وكانت لنا مبادئ لا يمكن أن تستخفى وراء الغموض، بل كانت أكثر وضوحا من أن يختلف عليها اثنان، وما كان من الممكن أن يخرج فى ليلة ٢٣ يوليو هذا العدد من ضباط الجيش مختلفى الاتجاهات والميول السياسية حاملين رءوسهم على أكفهم وهم يسعون إلى أهداف غامضة إلا إذا كانوا نفرا لا يجمع بينهم رأى جامع بل يعشش فى وجدانهم بله غريب!! إننا انطلقنا حاملين أهدافا ستة لا تمثل برنامجا تفصيليا دقيقا لكل منها لكنها كانت ترتكز على مفهومين

أساسيين هما تخليص الوطن من قيود الاستعمار والاستغلال ورد الاعتبار إلى الشخصية المصرية.

....

....

واتصالا بما سبق

فإن دور الفرد التاريخى - القائد أو الزعيم - داخل موقع أقدم دولة كائنة فى العالم المعاصرَ - يأتى استجابة لضرورات وأحكام دور مصر..

□□□□

النصف الآخر للحقيقة

"ما بال الزمان يضن علينا برجال ينبهون الناس، ويرفعون
الالتباس، ويفكرون بحزم، ويعملون بعزم، ولا ينفكون
حتى ينالوا ما يقصدون "
عبدالرحمن الكواكبي

ويبقى دور جمال عبدالناصر رقما بارزا فى حسابات التعريف التاريخى لدور الفرد فى مرحلة تاريخية معينة.. يبقى دوره كاشفا لدلالات ومعان دور الفرد التاريخى من حيث الالتحام والتوحد مع دور مصر.. من حيث معايشته لضرورات وأحكام هذا الدور. وربما يمكن القول - تجاوزا - وكأن دور مصر كان يترقب دور الرجل، بعد سنوات من عمر التاريخ شهدت حصارا على هذا الدور، او إغفالا أو تجاهلا لمقدرات ومفهوم دور مصر، أو العجز عن إدراك الموروث التاريخى والحضارى والإنسانى لهذا الدور، أو عدم القدرة على استلهام روح مصر، واكتشاف أبعاد الدور المصرى الذى يتجاوز حدوده إلى ما هو أبعد من الموقع الجغرافى، وباعتبار أن قدر مصر أن تصبح قوة إقليمية فاعلة ونافذة ومؤثرة بعروبتها وبعمقها الاستراتيجى فى أفريقيا، وقوة عالمية بمكانتها وتأثيرها فى حركة الأحداث داخل العالم الثالث وبعمقها الاستراتيجى داخل الدائرة الإسلامية الأوسع..

....

وإذا كانت الحركة التاريخية التى قادها جمال عبدالناصر قد أثرت فى منطقة تجاوزت حدود الدوائر الثلاث العربية والأفريقية والإسلامية.. فإن دوره بالأساس كان يعتمد على الوعى الاستراتيجى بإحكام دور مصر، وبمصلحة مصر الاستراتيجية.. ولذلك لا يزال الرجل متفردا بزعامته فى وجدان الأمة، وأن يتحرك خاطرا يحوم حولها كل يوم، وطوال تلك السنوات التى لا نعرف لها نهاية.. ولا يبدو أن لها نهاية مقدرة حتى الآن!!والزعماء خالدون بما أعطوا، وبما تركوا، وبما رسخوا من مبادئ وقيم ومواقف.. وفى جانب كبير من هذه الصورة كانت حياته ملكا لأمته وقارته الإفريقية، وكانت أفعاله أقوى وأمضى من كل الأفعال.

ومثل هذا لا يزال قائما فوق ساحتنا العربية وخارجها..

ومثل هذا وجده الأديب الكبير بهاء طاهر متجسدا فى أفريقيا..

وتقول الواقعة كما يرويها الروائى الكبير:

· كنا فى رحلة من العاصمة نيروبى إلى مدينة كينية أخرى، وتوقفت بالسيارة فى قرية صغيرة على الطريق فتوجهت مع مجموعة من جنسيات مختلفة نبحث عن سجائر فى ذلك المكان.. دلونا على دكان صغير يشبه مثله فى أى قرية من قرانا، حيث تتكوم أجولة السكر والدقيق فى ناحية وبجوارها صفائح الزيت وقطع الصابون المرصوصة، وأوعية تضم حلوى للأطفال، ورف للسجائر.. الخ، ووسط كل تلك الفوضى كانت هناك، فى صدر المحل صورة مثبتة بالدبابيس فى الحائط، صورة ملونة قديمة لوجه يبتسم، وكنت أعرفها جيدا "صورة جمال عبدالناصر".. وعندما اشتريت السجائر من صاحب الدكان العجوز، سألته بشكل عابر:

صورة من هذه المعلقة هناك؟

فالتفت الرجل خلفه فى دهشة مشيرا إلى الصورة وهو يسألنى:

ألا تعرف من هو؟

لا

فقال الرجل ببساطة: هذا هو أبو أفريقيا.

ولن أنسى ما حييت البساطة واليقين فى لهجة ذلك الرجل الأشيب وهو يقول لى بلكنته الإفريقية (This is the father of Africa)وقفت صامتا للحظة. كنت قد تركت مصر وقتها، وصحف العهد تتبارى فى الهجوم على عبدالناصر، لم يترك الكتاب نقيصة إلا وألصقوها به، وكان نشر صورته أيامها من المحرمات، ناهيك بالطبع عن إذاعة صوته، أو الإشارة إلى أى شىء حسن فعله فى حياته، حتى بحيرة ناصر خلف السد العالى، معركته الكبرى، وإنجازه الباقى، شطبوا اسمه من عليها مخافة أن يذكر الناس به.."

....

....

وفى مجمل الأحوال فإن الملائكة لا يسكنون الأرض، والرجل

الكبيـر ـ رحمه الله ـ خاض تجربـة متفردة فى تاريخ مـصر والامة العربيـة.. وللتجربة إيجابيـات وسلبيات، ولكنه حاول أن يحدد ملامح المشروع العـربى الكبير، وهو يحمل همـوم أمته، قاصدا الـعبور إلى مرحلة التغيير السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى، وقد كان عظيما مع كل المحاولات.. ولأنه لا يمكن إلا أن يكون هكذا..

ومعـيار الحكم علـى الرجل الكبيـر يجب أن يرتكز أولا على ثلاثة محاور: الزمن والفعل والإنجاز..

الزمن: بتوقيت المرحلة التاريخية وأوضاعها وظروفها وأحداثها..

والفعل: بمفـهوم الحركـة التاريخية لدور مـصر والمتغـيرات التى هبت على الساحة العربية

والإنجاز: بحقـائق المتغيرات الاجـتماعية والثـقافية والاقـتصادية والسياسية داخل مصـر.. ثم نقيس بحجم هذه التجربة حجم الأخطاء والسلبيات.

ولا أعتقد أن هناك من ينكر ولو فى لحظة صدق مع النفس.. ولو فى لحظة مـباغتـة لاستـرجاع زمن الحدث الذى مـضى.. أن الرجل الكبيـر ـ وهو فى رحاب الله ـ لا يزال يمثل رمـزا لشموخ وكـبرياء هذه الأمة، بعـد أن أعاد تقويم مـسيرة التـاريخ العربى بعد عـشرات السنوات من الضياع والاحتلال والسقـوط تحت سلطات مستعمرات النفوذ والمصالح..

وهذا ما تقوله حقائق الزمن الراهن!!

وكان رحمه الله ـ أكثر وعيـا لدور مصر الإسلامى..وكان تقديره أن الأزهر الشـريف يمكنه أن يـؤدى دورا رائدا وفـعـالا ومـؤثرا، وبالتـالى كـان لابد له أن ينهـض ليواكـب التطور الهـائل فى شـتى نواحى الحـياة المخـتلفـة، وأن يخـرج بالأزهر الشـريف من دوره المحلى إلى دوره العـالمى.. فقد كـان عبدالناصـر مدركـا لهذا الدور وكـان يرى أن الطـبـيب الأزهرى والمهندس الأزهـرى، والبـاحث الأزهرى، فى شتى العلوم التجريـبية، يستطيع أن يؤدى دورا لا يقل

أهمية عن الدور المتخصص فى الدراسات العربية والإسلامية، وأنه عبر الدهر سيخلق تواجدا لمصر فى العالم.. ومن هنا كانت رؤيته لأهمية تعليم المسلمين فى أفريقيا، وربما كان ذلك أحد أسباب تطوير الأزهر الشريف وتوسيع مجال الدراسة فيه ليشتمل على بعض الكليات العملية والتخصصات الأخرى.. وبطبيعة الحال لم يكن فى مقدور مصر أن تتولى مسئولية التعليم فى هذه المناطق كلها، ولكنها كانت تريد أن توجد النخبة المتعلمة من المسلمين فى كل مكان من أفريقيا.. ولم تشأ مصر أن يصحب هذه المساعدات ضجيج أو دعاية تتناسب مع حجمها، خاصة وأن مساعدة المسلمين فى كثير من الأحوال كانت تثير شكوكا وحساسيات لدى بعض الزعماء والحكومات فى الغرب..

وفى عهده خصصت المنح الدراسية لأفريقيا فى جميع الميادين بما فيها الأزهر الشريف والجامعات والمدارس الأخرى، وكان هناك اهتمام خاص بالمناطق الإسلامية.. وعلى سبيل المثال كانت المنح الدراسية مفتوحة لإريتريا منذ عام ١٩٥٥ بحيث لا يرد أى طالب علم يأتى من إريتريا، وأعطيت التعليمات لأجهزة الأمن على الحدود، بألا يمنع إريترى من دخول الأراضى المصرية، حيث كان الإريتريون يحضرون إليها سيرا على الأقدام للالتحاق بالأزهر، وذلك نتيجة للاضطهاد الذى كانوا يلاقونه أثناء حكم الإمبراطور هيلا سيلاسى، حتى أنه طلب من جمال عبدالناصر فى إحدى زياراته إلى القاهرة، أن تقدم المنح المخصصة للإريتريين فى الأزهر عن طريق الحكومة الأثيوبية، ولكن عبدالناصر رفض متحججا بأنه لا يستطيع التدخل فى شئون الأزهر.. فقد كان عبدالناصر يرى ضرورة فتح أبواب العلم أمام المسلمين وخاصة فى المناطق التى حرموا فيها من فرص التعليم لمجرد أنهم مسلمون، وكان يشعر بأن مسئولية خاصة فى هذا المجال تقع على عاتق مصر بصفتها أقدم دولة إسلامية فى أفريقيا، وأكثر دولة قدرة على تقديم هذا النوع من المساعدات..

وكان عبدالناصر حريصا على توحيد صفوف الأمة الإسلامية، وسد الثغرات التى يحاول الآخرون إثارة الفتنة من خلالها بين السنة والشيعة.. ودعا فى عام ١٩٦٢ إلى مؤتمر علماء المسلمين.. ولأول مرة فى تاريخ مصر يجتمع علماء المذاهب الثمانية " الحنفية - المالكية - الحنابلة - الشافعية - الإمامية الاثنى عشرية من إيران - والزيدية من اليمن - والأباضية من عمان - والظاهرية من الجزائر".. وكانت رؤية جمال عبدالناصر فى هذا الوقت المبكر هى أن تقدم الأمة مرهون بأن تعيد قراءة تراثها وتوحيد صفوفها، وقد نتج عن المؤتمر جهد فكرى عظيم سجل فى موسوعة ناصر للفقه الإسلامى، وتتناول بحث كافة المسائل الفقهية، وحكم المذاهب الثمانية فيها، بدأت من حرف (أ) ومازالت تصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تأكيدا بأن المذاهب ليست أديانا بل هى فهم للدين..

....

....

وأعتقد أن قراءاته المتعمقة للتاريخ - وكانت هوايته الأولى منذ مرحلة الشباب الأولى - خلقت علاقة شبه صوفية بينه وبين ضرورات وأحكام دور مصر، وأن يكون هذا الدور فاعلا ونافذا ومؤثرا ومتواصلا على ساحة تجاوزت بالطبع - وبأحكام دور مصر - حدود الجغرافية المصرية.. وهى سنوات من عمر التاريخ المصرى المعاصر عبرت عنها كلمات الدكتورة سهير اسكندر - حزب الوفد - بإيجاز أكثر تعبيرا ومصداقية.. وهى تقول: كنا نشعر بالاستقلال الفعلى، بل لعلنا أسرفنا فى الشعور بالزهو والثقة، ذلك كان حال مصر فى مرحلة الستينيات الخصبة فنيا وثقافيا، فقد كانت مصر مستقلة ومنتجة وحاضرة..

وبإيجاز غير مخل كان دور مصر الثقافى فى هذه الحقبة رياديا وفاعلا ومؤثرا.. وهى حقيقة تراها الدكتورة هالة مصطفى - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - قد سجلت أروع

ازدهار للأدب والفن الروائى والسينمائى.. حرية الإبداع وحرية التعبير عنه. فى زمانها كتب ونشر نجيب محفوظ أديب وروائى مصر العظيم أعظم أعماله وأكثرها جرأة ونقدا للواقع السياسى والثقافى والاجتماعى: "سائق القطار" و"ثرثرة فوق النيل" و"ميرامار" و"المرايا" وغيرها، وكانت هذه القصص والروايات تنشر على حلقات فى الصحف والمجلات القومية قبل أن يتحول بعضها إلى أعمال سينمائية، وكان الأهرام بتقاليده العريقة الممتدة إلى الآن فى مقدمة تلك الصحف.وفى نفس الزمن قدم أديب مصرى كبير آخر هو ثروت أباظة روايته الشهيرة "شىء من الخوف" التى أثارت وقتها زوبعة سياسية، واعتبرها البعض نقدا صريحا للحاكم.. والحاكم وقتها لم يكن سوى الرئيس الراحل جمال عبدالناصر.. وتحولت الرواية إلى فيلم سينمائى شاهده ناصر بنفسه، وبعدها سمح بعرضه فورا دون رقابة: وهذا جانب مشرق من الصورة، بل مشرق جدا لتلك الحقبة بما لها وما عليها".

ومیزة القائد التاريخى هى مقدرته على الاتصال بالحقائق التاريخية وقابليته للتعبير عنها: فكرة وحركة.

وهكذا كان تجسيده لدور تاريخى، يمليه عليه دور مصر..

وأتصور أن الإعلام الغربى كان على درجة كبيرة من الوعى بما سيحدث فى المنطقة بعد غياب دور الرجل.. وكانت التوقعات ـ بعد الرحيل مباشرة ـ أقرب إلى استشراف وقائع المستقبل العربى، واستكشاف تخوم المتغيرات التى ستهب على الساحة العربية..

قالت صحيفة "الجارديان"..البريطانية: إن العالم كله سيبكى ناصر بوصفه رجلا متفوقا حتى على نفسه.. وتستشعر بغيابه إسرائيل.. وكانت له قدره فائقة على تغيير مجرى الأمور فى بلاده.. والقيادة العربية كلها ستتأثر بوفاته، لقد فقد العرب قائدا معترف به بل إن العرب الذين كانوا يخالفونه سيبكونه يوما..

"التايمز".. إذا كانت عظمة الرجال تقاس بقدر الفراغ الذى

يتركونه بعد مماتهم، فإن ناصر يعتبر بحق أعظم الرجال.. كان تأثيره كبيرا، يمد ظلاله من الشرق الأوسط على قارات المنطقة، واحتل مكانة كبيرة.

"الديلى تلجراف".. صحيح أن ناصر وحده كان يستطيع أن يقنع كل العرب بالتوصل إلى سلام دائم مع إسرائيل، ولكنه أيضا كان الوحيد القادر على أن يجعلهم يحاربون إلى آخر المدى.

"الواشنطن بوست".. لقد اختطف الموت ناصر وهو فى موقف سياسى بارز وهو يحاول حقن الدماء فى الأردن.. لقد كان ناصر دائما فى القمة وقد سجل له التاريخ مآثر كثيرة.

"الايفننج ستار".. لقد جاءت وفاة ناصر فى وقت من أحرج الأوقات التى يمر بها الشرق الأوسط، وصحيح أن الغرب لم يجد الفرصة ليفهم ناصر، ولكن الخسارة بوفاته جاءت خسارة للعالم كله لذكائه غير العادى وقوة إرادته وشجاعته..

"النيوزويك".. لقد رأينا فى مصر ثلاثة أنهار، نهر النيل، ونهر البشر، ونهر الدموع، ومن هنا عرفنا عظمة الرجل..

....

....

أصبح دور الرجل.. رمزا لدور مصر.

وكانت كلمات الرئيس مبارك فى الذكرى الحادية والعشرين لرحيل عبدالناصر، تحمل تعبيرا صادقا، وكاشفا لمعان ودلالات دور الرجل التاريخى على ساحة الدور المصرى:

"إن مرور السنوات لا يمكن أن يمحو صورة جمال عبدالناصر من قلوب وعقول الجماهير.. رجل عملاق انحاز لحقوق الشعب فى كل مراحل حياته انطلاقا من إيمان عارم بمصريته ووطنيته وما أدى الراحل العظيم من جلائل الأعمال التى سجلها التاريخ فى أنصع صفحاته.. لقد كانت قيادة الزعيم جمال عبدالناصر لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من أكبر علامات التحول فى بناء دولة مصر فى العصر

الحديث فقد تأسست الجمهورية لأول مرة فى تاريخ البلاد، وتحقق العدل الاجتماعى بالقضاء على الإقطاع الزراعى، وتغيرت خريطة المجتمع المصرى بما أعطى من حقوق للملايين، التى حرمت طويلا من حقها فى الحياة الكريمة، ودخلت مصر أكبر معارك حريتها وسيادتها، وأصبح القرار المصرى هو قرار شعب مصر متحررا من التبعية، رافعا لواء الاستقلال بكل العزة والكرامة.. قاد جمال عبدالناصر ثورة ٢٣ يوليو التى أيدتها الملايين وحمتها الملايين فى كل معاركها التاريخية التى تحدت بها قوى البطش، وأصبحت الثورة منارا لكل المناضلين والمكافحين من أجل الحرية وحقوق الإنسان فى مختلف قارات العالم، وأصبحت مصر هى الحصن لحركات التحرر وانتفاضات الشعوب وهى رمز التحدى والصلابة والصمود والإرادة الوطنية المنتصرة.."

وذلك استطراد كان يمكن الاستغناء عنه، لكنه تداعى مع الحديث عن دور الفرد التاريخى على ساحة الدور المصرى.

....

ومع مراعاة تجنب الجدل حول دور الفرد فى التاريخ، أو دور التاريخ فى صناعة البطل، أو حكم المصادفات، والعوامل المساعدة فى خلق أسطورة الفرد التاريخى، فإن الثابت لنا عبر القرون الممتدة أن للتاريخ مشاعل تضىء دروبه وتهدى مسيرة الشعوب إلى طرق مقاصدها حتى تبلغ أهداف آمالها أو على الأقل أن تنتبه إلى حالها وما هى عليه وتنفض عن كاهلها تلال القنوط واليأس.. ودور القائد البطل ليس حكرا على المجتمعات المتخلفة أو النامية أو التى تعانى من قهر التخلف والسيطرة الخارجية.. ولكن حتى المجتمعات المتقدمة التى ترتكز إلى مؤسسات دستورية فإن دور الفرد القيادى لا يختفى من حياتها، فكثير من الرجال كانوا "بوصلة" شعوبهم وأساس الحركة التاريخية لحياتهم فى أوقات الأزمات والمحن..

....

وإذا كان هذا دور الفرد فى المجتمعات وفى حركة التاريخ..

فإن هناك أحداثا تعد نقط تحول تاريخية فى حياة الأمم يمكن أن نطلق عليها (أحداث المهام الكبيرة) التى تنجز على أرضها وحولها واقعا جديدا يجسد إرادتها ويحرك هممها، أى تسحب وراءها متغيرات شاملة أبعد من حدودها المحلية، وتبشر بعهد جديد، وحقبة زمنية جديدة تزدحم مشاعرها بمختلف الرغبات والتمنيات لصياغة مستقبل جديد.

.. هكذا كان دور جمال عبدالناصر..

وهكذا كان دور ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢..

أى أن للأمة العربية تاريخا حديثا يمكن كتابته وتسجيله وتوثيقه مع بداية الثورة حين بدأت الآمال تنمو نموا طبيعيا، وحين بدأت العقول العربية فى اكتشاف مجموعة أهداف مشتركة وآمال وتطلعات تحيط بمشروع المستقبل.

وبعد الرحيل.. كان للفراغ السياسى دورا آخر!!

وهكذا - كما يقولون - تمهد الأقدار.. للأقدار.. وتمهد الأحداث.. للأحداث!!

□□□□

من أوراق السبعينيات
الثوابت.. والمتغيرات

"الشخصيات وليست المبادئ هي التي تحرك الزمن"

أوسكار وايلد

ما حدث فى بداية حقبة السبعينيات لم يكن بعيدا عن دائرة التأثير فى حركة الدور المصرى.. كان "الدور" هو الهدف.. إبطال مفعول الدور المصرى و"حشره" داخل الوجه الإقليمى الضيق لمصر، وبعد أن كانت خطورة جمال عبدالناصر ـ بالنسبة للقوى الطامعة والغالبة ـ أنه كان تيارا عريضا ممتدا عبر كل الحدود السياسية فى العالم العربى.. وكانت هناك حركة تاريخية عامة ونشطة فى المنطقة تستند إلى دور مصر قبل أى شىء آخر، وهو دور يمتلك عناصر قوة غير منظورة، وتأثيرها أشد من تأثير عوامل القوة المنظورة.. ولذلك لم تتأخر حملة التشكيك الموجهة لمصر ـ إلا أياما معدودة ـ بعد رحيل عبدالناصر، ومع بداية تصوير ثورة ٢٣ يوليو وكأنها سنوات طويلة من القهر والظلم والاستبداد!! ثم جرى تصوير ملحمة السد العالى وكأنها كارثة بيئية حلت على الأرض الزراعية فى مصر!!وأصبحت حرب السويس هزيمة ساحقة، رغم انتصارها الذى كان نقطة تحول فى العالم العربى، وفى قارات العالم الثلاث النامية آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وحين سجلت نهاية مرحلة أكبر إمبراطوريتين فى العالم ـ البريطانية والفرنسية ـ وحتى تأميم قناة السويس أصبح قرارا انفعاليا جر على مصر عدوان ثلاث دول، ودون الاحتكام للعقل وانتظار الموعد القريب لانتهاء فترة الامتياز عام ١٩٦٨!!

ولم تقف حملات التشكيك عند هذا الحد.. ولكن.. تجاوزت كل الحدود والخطوط، وفوق كل ما يمكن تصوره!!

وكان الهدف أن يهتز يقين الشعب المصرى فى كل إنجازاته، وفى كل شىء حوله، ليصل إلى حالة إحباط تورثه شعورا من اللامبالاة يجعله يقبل بما لا يمكن قبوله، وأن يسكت عما لا يجوز السكوت عليه، ـ حسب تعبير الأستاذ محمد حسنين هيكل ـ وكان الخطأ وقتئذ أن البعض تصور أن ما يحدث مجرد شئون داخلية مصرية، حين راجت تجارة (صناعة المذكرات) وتسويقها، ودخلت الساحة أقلام جديدة تبحث عن

(الرزق المتاح) ولا يهم - فى مفهومها الأخلاقى - الثمن المقابل، بعد أن استبيحت سطور التاريخ وبعد أن تراءى لها بالظن أو باليقين وحسب وسائل الإدراك أن فجر الكلام المباح أهدر دماء مرحلة كاملة برموزها السياسية والفكرية والثقافية التى شاركت فى تشكيل وخلق التوجهات القومية للجماهير العربية، ووعيها بمستقبل وجودها، وبلورة فكرها ووجدانها الثقافى.

واستمرت سنوات (الحملة) وتعددت جبهات الأقلام لتفكيك أوصال الأمة والإجهاز عليها بإثبات الإدانة - سياسيا وفكريا - ومن ثم تصفية فكرة القومية العربية وقطع شرايين مشاعرها الممتدة بالانتماء داخل الجسد العربى الواحد.. والهدف كان محددا - ولا يمكن أن تنزلق الرؤية بعيدا عن مساحته الكلية - وهو اختراق العقل المصرى والعربى اختراقا متعدد الزوايا ومكثفا، حتى إذا فشلت "نظرية الردة" ولم تحقق مكاسبها بتغيير قيم ومبادئ فإن ما يمكن التوصل إليه هو حالة من عدم الاستقرار - البلبلة - أو تفكك أنسجة العقل العربى ثم توجيه الخطاب المناسب للمرحلة المناسبة!! والنتائج - بكل أسف - كانت تدميرا للأحلام والآمال والتطلعات داخل خريطة القومية العربية ومحاصرة مبادئها بقذائف مستمرة أطلقتها بعض الأقلام، لذلك فإن ما حدث من حولنا وبدعاوى حرية الرأى والقول كان بالتحديد عملية حفر تحاول بشتى الطرق تحطيم الأعمدة التى قامت عليها واعتمدت على صلابتها أسس الفكر العربى.. وتصدعت داخل عقول الغالبية العظمى من الجماهير المصرية معايير القياس والحساب، وتكسرت تحت أنظارها موازين عديدة كانت تساعد فى وضوح الرؤية، ثم انتقلت العدوى إلى الجماهير العربية، وبعد أن كانت تراقب ما يحدث فى مصر بدهشة تصل إلى حد الاستنكار شديد اللهجة!!

....

والغريب - حقا - أن تلك الأقلام التى ساهمت بقدر معلوم فى

إدارة مهرجان "قذف السهــام" على شواهد المنجزات وسط موجات التشـويه والتجريح والإدانة الشاملـة الظالمة ـ هى نفس الأقلام التى نالت قدرا عاليـا من إعجاب واحترام القـارئ المصرى والعربى طوال فترة نبوغها الأدبى ونجاحها الصحـفى خلال الثمانية عشر عاما من حكم عبدالـناصر، وبعطائها الفكرى وجدت الفـرصة مهيـأة لانتشار إبداعاتها، ولو حدث ما قيل عن تكسيـر أقلامها ما كنا بالضرورة قد سمعنا أو قرأنا عن تلك الأسماء ومتـابعة إنتاجها الوفير! فكيف يمكن للتربة المسـتعمرة بسنوات القـهر وسلطان الفرد أن تقـدم لنا ثمارها من الإنتاج الفكرى، وأن تنبت فـوقها عقولا كـانت لها الريادة الأدبية على الساحة العربية؟!

....

....

وأعتقـد أن مهمة الحـملة كانت محددة بتـمهيد السـاحة وتجريف الثوابت.. ثم شق الطرق داخل العقل العربى ليتـقبل المتغيرات الطارئة والمستجدة!!

عمـوما.. لم نـهتم كـثيـرا ونحن نتابع مـشاهد الحـملة وتسلسل بناؤها الدرامى وتعـدد الأساليب والأدوات ـ بمسـتقـبل الوعى داخل العقول العربية ـ ولأكثر من جيل ـ تمكن منها كم هائل من الإحباط..

☐ جيل كامل شــهد مولد الثورة فى سن النضـوج وآمن بمبادئها وتحمس لهـا فأعطى الثقة كـاملة لقائدها وبإعجاب يصل أحـيانا إلى درجة الانبهار.

☐ جيل الأبناء ـ الذين بدأت أعمارهم مع بداية الثورة وحين رحل عبدالناصر كانوا زهرة شباب هذه الأمة المتفتحة بالأمل ـ جيل يبحث ويناقش ويتطلع إلى آفاق رحبة لا تحد حـركته أو تعيق رؤيته نكسة ١٩٦٧.

☐ وجيل آخـر بدأ سنوات العمر بـعد وفاة عـبدالناصر وتفـتحت عيون الوعى لديه مع مؤلفات الحمـلة وهم لا يدرون أين الحقيقة بعد

أن أصاب " لدوار" جيل الآباء نفسه.

□ وأجيال قادمة سوف تعى مؤخرا أن تاريخها قد تعرضت سطوره خلال سنوات حقبة السبعينيات لأسوأ محاولات السطو وحذف النقاط من فوق الحروف حتى تبدو السطور مبهمة أو "مشوهه" وتقبل الإحلال أو التبديل وتخضع لعوامل الطرح والقسمة.

وإذا كان "نابليون" قدحدد بالقول أننا أمة تحركها الكلمة.. فإن ما وراء القصد كان استخدام (الكلمة) لغزو عقول تلك الأمة والسيطرة عليها!!

ولقد خلقت هذه الظروف وعيا "مشوهه"..وقد بدأت تنهار قيم ومبادئ أحاطت سياجها بمفهوم التضامن العربى، ووحدة المصير، والهدف، ووحدة الأمن القومى العربى.. وعلى هذا النحو جرى تشكيل المفهوم الجديد بأن تلك المفردات كانت أوهاما وشعارات بالية اختلست من العمر سنوات بلا فائدة..

....

....

وعودة إلى تأكيد القول..

فإن هذه الحقبة قد شهدت رياحا عاصفة هبت بالشكوك حول عروبة مصر.. وارتفعت ـ وقتئذ ـ بعض الأصوات ترفع من شأن "مصر الفرعونية" وتدفع أمامها بشعار "مصر أولا" والانتماء للمصلحة الوطنية أولا وأخيرا، وفى مواجهة "عروبة مصر" والانتماء لهوية "القومية العربيّة".. ووسط تلك الدوامات من تساؤلات الشك، تم إدانة دور مصر تجاه ثورة اليمن وثورة الجزائر، [illegible] عطاؤه فى محل الاتهام!! وبدأ التلاعب بحقائق استراتيجية ضخمة تستند إليها دعائم دور مصر الذى جعل منها قوة إقليمية بعروبتها، بل وعلى قاعدة عروبتها جعل منها قوة عالمية بمكانتها فى لعالم الثالث وبتأثير حركتها داخل قارتها الإفريقية..

واتصور أن الطعن فى حقيقة انتماء مصر إلى أمتها العربية.. كان.. بقصد تعطيل حركة الدور المصرى..

....

ولا أعرف هل هى مصادفة أن تثار نفس القضية مجددا ـ من أوراق السبعينيات ـ بعد أن فتح الكاتب أسامة أنور عكاشة مرة أخرى أبواب الجدل بعد أكثر من ٣٥ عاما حول حقيقة لا تقبل الجدل؟! ولا أحد يعرف لمصلحة من فى الظروف الراهنة التشكيك فى عروبة مصر؟! والتساؤل الحائر والقلق يفرض نفسه.. وأتفق مع الباحث ضياء رشوان ـ الخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ـ فيما يقول.. هل هى مصادفة أم مفارقة، أن يكون أول هجوم "صاخب" على فكرة عروبة مصر، وعلى توجهات ثورة يوليو ١٩٥٢ القومية العربية بقيادة الرئيس جمال عبدالناصر بعد رحيله، آتيا من سيد المسرح العربى توفيق الحكيم عام ١٩٧٢ فى كتابه "عودة الوعى" وأن يكون آخر هجوم من النوع نفسه قادما من أبرز كتاب الدراما التليفزيونية "المصرية العروبية".. أسامة أنور عكاشة؟! والأرجح اننا أمام مصادفة ومفارقة فى الوقت نفسه مع تشابه فى المنطق الذى يبنى عليه الكاتبان الكبيران الحجج، التى ساقاها للتبرؤ من عروبة لبلدنا تتبناها تيارات سياسية وفكرية عديدة، وتؤكدها معظم الوقائع والحقائق التاريخية والحديثة المعاصرة، فضلا عن غالبية المصريين أنفسهم.. والمصادفة قادمة من طبيعة الشخصيتين، ومن توقيت الهجوم "الصاخب"..

أما مصادفة التوقيت، فهى أن يأتى الهجوم ـ السابق واللاحق ـ على انتماء مصر العربى وحقيقته فى مرحلتين تشابهتا فى كثير من الملامح الخطرة، وأبرزها تفشى دعاوى التفتيت ومحاولاته الدؤوبة على الصعيدين المصرى والعربى معا، والسعى السياسى من أطراف بعينها، لصياغة هوية جديدة لبلدنا ومنطقتنا كلها، ففى وقت توفيق الحكيم بدأت فى مصر أول أحداث ما بات يسمى الفتنة الطائفية، بين

مسلميها ومسيحيها، وسرت المشاعر الطائفية المتعصبة فى جنبات المجتمع، لتهدد وحدته التاريخية، بينما كانت سلطة الرئيس السادات الجديدة - حينئذ - تسعى بكل سبلها لإعادة تشكيل الهوية المصرية، وفصلها عن سياقها العربى!! أما فى وقت أسامة أنور عكاشة، فقد أضيفت للفتنة الطائفية السارية بين عنصرى المصريين، فتن أخرى راحت تتسارع وتتسع، واتخذت أشكالا مذهبية تقسم المسلمين أنفسهم بين سنة وشيعة، وأخرى عرقية، وثالثة لغوية ثقافية، بينما تجرى فى الوقت نفسه محاولات دؤوبة بالسلاح والسياسة والإعلام من جانب "الغزاة الأمريكيين" وحلفائهم الإسرائيليين، لتمزيق شعوب ودول المنطقة بين هويات مختلفة متصارعة، بعد القضاء على الهوية الواحدة التى تجمعهم، أى تلك العروبة المغدورة!!

أما عن المفارقة، فهى أن يتراجع كل من «الحكيم وعكاشة" عن كل - أو معظم - ما بنيا عليه خلال سنوات طويلة فكرهما وإنتاجهما، الذى عرفا به بين الناس، بل وأن يشرعا فى الهجوم عليه مستخدمين اللغة نفسها تقريبا، المتخمة بالتعبيرات الأدبية والإنشائية. فى معالجة قضايا هى بطبيعتها ذات مضمون سياسى وتاريخى واجتماعى وثقافى معقد!! وعند النظر لبعض تفاصيل الهجوم على العروبة والانتماء القومى لمصر، نجد غياب العلوم المتخصصة والرؤية التحليلية التاريخية، ورغم أنهم يقرون بوجود عناصر تؤكد وجود ثقافة عربية سائدة، فهناك بلا شك وحدة ثقافية متحققة بالفعل، وأهم تجلياتها فى وحدة اللغة واللسان والإبداعين الأدبى والفنى، كما تتشابه أنماط السلوك وبعض قوالب التفكير "تتشابه ولا تتطابق".. وهذا ما تقوله أبرز نظريات الوجود القومى العالمية، التى ترى نفس تلك العناصر كافية لإثبات هذا الوجود المشترك لمجموعة من الشعوب أو الدول.. أما قولهم بأن مقومات الدولة الواحدة أو الموحدة غير موجودة وسمات الوطن الواحد غير متوفرة فى العالم العربى، فإن غياب تلك الدولة أو الوطن الواحد، إنما يعكس غيابا لإرادة

سياسية وعوامل ذاتية ولا يعنى غيابها غياب مقومات الأمة أو القومية الواحدة التى لا يتوقف وجودها على تلك الإرادة وهذه العوامل.

.....

.....

وهناك تفسير - يضيف كثيرا لما سبق - ومن وجهة نظر الأستاذ هيكل فإن مصر باعتبارها أقدم دولة فى التاريخ، فإن ذلك يخلق خلطا بين مفهوم الدولة ومفهوم الأمة فيها، فضلا عن أن الفكر والفعل السياسى المصرى أخذا قضية انتماء مصر العربى أمرا مفروغا منه، وبالتالى فإن أحدا لم يبذل جهدا كافيا لتأصيله، وأن وحدة الأمن العربى ليست واضحة فى اليقين المصرى بالدرجة الواجبة، وكذلك وحدة المصلحة العربية، ومن محصلة ذلك كله أن الفكرة العربية فى مصر تكون معرضة ومكشوفة لدعاوى من نوع "مصر وحدها" أو "مصر أولا" وما شابه ذلك، وكلها دعاوى يسهل ترويجها والارتكان عليها بنجاح - فى بعض الأحيان - بقصد تعطيل التفاعلات الضرورية بين الشعب على ضفتى النهر، وبين الأمة من المحيط إلى الخليج!!

وفى حقيقة الأمر فإن هذه الدعاوى تتجاهل تماما أحكام الجغرافية والتاريخ على أى شعب أو أمة، فهى التى تحدد لها انتماءها فلا يعود لعبة سياسية أو نزوة أهواء.. وتحدد لها ضرورات أمنها فلا تعود حائرة بين الآفاق لا تعرف أين تحذر وأين تطمئن.. وتحدد لها ضرورات مصالحها القومية، فلا تعود هذه المصالح معلقة بالمصادفات أو بالمغامرات، أو مختلطة بمطامع فئات أو جماعات أو طبقات تسود يوما فى غفلة زمان، فإذا هى تهدم فى لحظات محصلة قرون ونضال أجيال.

....

ومن أوراق السبعينيات انحراف الإرادة العربية عن حدود

تاريخها بعد أن أصبح التصاعد المستمر لمنحنى التمزق والتشتت متصلا بالمواقف التى قيدت قدرة الأمة العربية على استثمار انتصارها السياسى والعسكرى بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، وحين أدرك العالم بالمعرفة مواقع القوة الحقيقية داخل هذه الأمة حين جندت إمكانياتها وقدراتها تلقائيا مع بدايات الساعات الأولى للسادس من أكتوبر!! وفى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل - وضمن أهداف ونوايا وطموحات - تبحث عن الثغرات والقيام بمراجعة شاملة للوضع فى الشرق الأوسط.. كانت هناك - داخل الجغرافية العربية - تبدلات واسعة ومفاجئة تعلن عن نفسها وكأنها عملية تصفية حسابات مع الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى.. وكانت هناك تيارات مساعدة ترسم الخطوط العريضة لتلك المتغيرات التى توحى بأن المشكلة التى بدأت ملامحها تتشكل هى

"الفراغ السياسى" والتى سحبت وراثها فيما بعد سنوات (اللاقرار) والعجز عن تحديد مسار الحركة العربية فى مواجهة ما كان واضحا أنه طرح للخيارات السياسية العريضة ويستدعى تنسيق عربى لإدارة فنون التفاوض حول عملية السلام ولكن ما حدث لا يختلف كثيرا عن الغياب الرسمى للوجود العربى بالرأى والفعل داخل الحركة الدبلوماسية العالمية أى غياب (الالتقاء العربى) حول موقف محدد..

واستمرت سنوات (اللاقرار) تثير الاستفسارات حول ملكية القرار العربى أى من يملكه وما هى المصالح التى تحدد رؤيته الشاملة وما هى حدود مسئوليته وسلطات تأثيرة ومن الطبيعى أن تنتهى تلك التساؤلات باليأس عند حدود حالة الجمود السلبى ومستجدات أخرى حول انهيار ملامح التضامن والانتماء العربى مع تنامى دور "الإقليمية المحدودة".. ومع غياب القرار العربى - الواحد والواضح - أصبحنا بصفة الجمع العربى تتعثر خطواتنا داخل ساحة الانتظار

أو على هـوامش الأحـداث والـدوران حـول تسـويق الـشـعـارات بالتصـريحات الرسميـة وأصبح من الميسـور أن ندرك بالمشاهدة أن القـرار العـربى قـد دخل مـرحله (فك الارتبـاط) مع حـقـائق الواقع العربى، وفـقد بوصلة التوجـيه لتحـديد خط سياسى واضح، وتهـيأ المناخ للاسـتقـرار على الوضع الجـديد القائم ـ الـتشـتت فى الفكر، والسلبـية القطرية، وتعـارض اتجاهات الرؤى، والاهتـمام بالقـضايا الفرعـية التعـامل مع أزماتنا الداخليـة، وهى دعوة لإشعـال الحرائق تجاوزت حـدود المواقف العربيـة المتناقضـة إلى تفاقم حـالة الصراع العربى ـ العربى وانفجار النزاعات العربية!!

وربما تستدعى السطور العودة إلى التسـاؤل: لماذا تجاوزت الأمة العربية محـنة التصدع فى يونيو ١٩٦٧ والرياح معاكسـة والصدمة شديدة، ولماذا أصبح تسلسل الأحداث بعد معركة السادس من أكتوبر ١٩٧٣ مثيـرا لموجات متداخلة من عـلامات الاستفهـام والتعجب (؟) والإجابة تختصرها كلمات أديب فـرنسا الكبير أندريه مالرو: "ليست المسألة هى النصر العسكرى أو الهزيمة العسكرية، المسألة هى إرادة الأمة، وهذا الذى يبقى وغيره تكنسه الأيام".

....

....

وفى هذا كله فإن السنوات التى بدأت مع منتصف السـبعينيات ـ تقريبـا ـ أفرزت العديد من المشـاكل.. ولم يكن دور مصر بعـيدا عن تأثيرات سلبياتها:

☐ مـشكلة اخـتـيـار الأسلوب المـلائم لإدارة الصـراع العـربى ـ الإسـرائيلى وفى ظل أوضـاع القوى الـدولية الراهنة، وحـين كـانت المشاعر الوطنية تغلق ملفات التجـاوزات العربية، وحين كانت عناصر العـمل السـياسى والعـسكرى مع تدافع الحـوادث قـادرة على إتمام المهمـة التاريخيـة وهى بلورة ملامح التغـيير لمرحلة جـديدة تبدأ فى تاريخ الوطن العـربى!! إذن كان القـرار العربى أو بالتـحديد توقـيت

وصناعة القـرار العربى ـ وأحيـانا صياغتـه ـ عاملا فـعالا فى خلق الأحداث التى قاسـينا من سطوة آثارها وانعكاساتها، والأمـثلة تشير إلى أنه لم يستطع اجتـياز مرحلة الخيارات المتـاحة.. وأنه لم يستطع أن يتفاعل مع المسـتجدات التى طرأت مع نتائج حـرب أكتوبر ١٩٧٣ قبل بلورة المواقف التى فقدت غـالبا أدنى درجات الوفاق العربى فى الرأى.. وترتيـبا على ذلك.. أين كان الـقرار العربى مع بـداية الاتفاق على فك الاشتباك داخل الخيمة التى انتصبت على الكيلو ١٠١ شمال شرق القاهـرة ـ لأن معركة ١٩٧٣ لم تكن مواجـهة إقليميـة ولكنها كانت امتداد لمواجهة قومية عبر سنوات الصراع العربى الإسرائيلى ـ لذلك فإن غـياب القرار العربى وقـتها ـ جعل السـماء مفتـوحة أمام تقلبات الطقس العربى و"تجمع" سحب التناقضات..

□ مشكـلة فتح الأبواق الإعلامـية والرسـميـة تقذف بالاتهـامات وتوزع الأدوار داخل جدول "الخيانة والعـمالة" وتدير حرب الكلمات فى صلب تجليات النزعة العاطفية ومن هنا يمكن تقييمَ القرار العربى المتصل بزيارة الرئيس السادات للقدس وقطع العـلاقات الدبلوماسية مع مـصر.. والزيارة لم تـحقق أهدافهـا بالسرعـة المطلوبة، ولم تكن أقصر الطرق فعالية للتوصل إلى تـسوية شاملة، وحتى يمكن تجميد ردود الأفعال العربية الرافضة، وتشجيـع المشاركة العربية فيما بعد.. وما حـدث كمـا ترويه مذكـرات سايروس فـانس ـ وزير الخارجـية الأمريكيـة فى ذلك الوقت ـ "بينما لم تنتج حـركة السادات الجـريئة الاستجابـة الفورية والدرامية التى كان يأملها فـإنها أثرت بشدة فى المناخ السياسى والتـفاوضى.. وكانت مهمة تحـويل مبادرة السـادات إلى عمليـة محددة للتفـاوض قد وقعت بمعظمهـا على عاتق الولايات المتحـدة، وكانت خطوة السادات الأولى هى أنه دعـا الأطراف جميـعا منظمة التـحرر الفلسطينية والأمم المتـحدة إلى الاجتمـاع فى القاهرة فى منتـصف ديسمـبر لـمؤتمر الشرق الأوسط، وعلى أى حـال فقـد فشلت حتى الجهود الأمريكية المكثفـة فى أن تنتج اهتماما عربيا بهذا

الاجتماع ولم يشارك فيه سوى ممثلين أمريكيين ومصريين وإسرائيليين ومراقب من الأمم المتحدة"

....

كان التشاؤم العربى واضحا ـ من إمكان أن تستجيب إسرائيل لمتطلبات السادات السياسية، وكانت الريبة تزرع القلوب بالشك فى أن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل تستدرجان مصر إلى سلام منفصل!! ومهما كانت الرؤية فى ذلك الوقت، فإن ما قيل عن كسر الحاجز النفسى بين مصر وإسرائيل خلط كل الأوراق وانتقلت متاريس الحاجز النفسى لتقيم دعائمها بين الدول العربية ومصر.. وفى الخامس من ديسمبر، تشكلت الجبهة القومية للصمود والتصدى (سوريا وليبيا واليمن الجنوبى والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية) لمعارضة موقف السادات.. واتخذت الأقطار العربية الأخرى مواقف سلبية، ربما كانت تحاول أن تمتص الصدمة.. وتطورت ردود الفعل العربية إلى قمة الانفعال باتخاذ " قمة بغداد " قرار تجميد مقعد مصر داخل البيت العربى.. ونقل جامعة الدول العربية إلى تونس!!

....

وكانت الدبلوماسية المصرية تكافح على عدة جبهات من أجل المحافظة على عضوية مصر فى منظمة الوحدة الأفريقية وفى حركة عدم الانحياز بعد أن أخرجت مصر من الجامعة العربية ومن المؤتمر الإسلامى.. وفى ظل الفراغ السياسى لغياب دور مصر بدأت التطلعات نحو موقع الزعامة والقيادة الشاغر(!)

☐ مشكلة البحث عن الزعامة (زعامة قطرية قيادية) تتولى إدارة مقدرات الأمة العربية، وفى ظل التصورات بعزل أو غياب دور مصر.. وكانت سوريا تسعى بحذر، رغم الاشتباك السورى فى تعقيد الموقف اللبنانى بعد اشتعال الحرب الأهلية اللبنانية فى الثالث عشر من أبريل ١٩٧٥.. وكان الاعتقاد السورى ـ فيما أظن ـ أنه بحكم

شرعية التاريخ العربى وعرف "الإرث" فإن لسوريا الحق شرعا فى "الإحلال" وأن تكون "البديل" المقبول للقيام بدور القيادة فهى الجناح الشمالى الشرقى للجسد العربى توأم الجناح الغربى للأمة العربية، وبالاعتماد المتبادل بينهما حققت هذه الأمة عبر التاريخ انتصاراتها وردعها للأطماع الخارجية، وكما إنه لا حرب بدون مصر فإنه لا سلام بدون سوريا والتى تحتفظ بدرجة (الأول مكرر) بعد القاهرة فى إدارة أحداث التاريخ العربى!!

وكانت العراق ـ أيضا ـ تسعى إلى ذلك علانية وبخطوات واسعة تستعجل الانتهاء من مراسم "التنصيب" العربى لها.. وكانت مسوغات التعيين لشغل مقعد القيادة متعددة: فالعراق قد حمل لواء الدعوة لتجميد دور مصر داخل جامعة الدول العربية والمقاطعة الدبلوماسية للعلاقات معها، والعراق يتمتع بثروة بترولية كبيرة (ثان دولة عربية بعد المملكة العربة السعودية من حيث حجم الاحتياطى النفطى) وبالإضافة إلى "الوجه البترولى" فالعراق له "الوجه القومى الثورى" ويتبنى المنهج الوحدوى، وعطفا على ذلك ينادى بتعبير "عراق العرب" من حيث وحدة الجغرافية العربية ووحدة المصير والانتماء، أى منهج نضالى يطالب بالكفاح المسلح لتحرير الأراضى العربية وهو منهج يخاطب مشاعر الجماهير العربية!! وراودت أحلام الزعامة فى زمن الفراغ السياسى ـ العقيد القذافى أيضا!!

ولم يلتفت أحد إلى مخاطر اللعب بحقائق استراتيجية وغياب أو تجميد "دور مصر".. وكان هذا خطأ تداعت منه أخطاء!!

....

وأصبحت الأمة العربية أمام نتائج تنذر بأسوأ العواقب وتنسج بكل انعكاساتها البدايات التمهيدية لسنوات حقبة التردى إلى قاع البركان.. وأصبح الزمن العربى مقياسا لتحقيق مقولة "أوسكار وايلد" بأن الشخصيات وليست المبادئ هى التى تحرك الزمن.. بعد

أن تحكمت المصالح الشخصية والاتجاهات المزاجية واتصالها بالتيارات الخارجية فى رسم حدود الخطوط العريضة للعديد من خطوات تحركاتنا العربية داخل استراتيجية تفتقد أولا - وبتأثير الأسس السابقة - لمقومات المصلحة القومية العربية، حتى قيل أن العالم العربى يخلق أسبابا للتعارض فيما بينه داخليا أكثر مما يخلق أسبابا من أجل الوفاق، وعلى هذا الأساس جرى التعامل مع الأحداث ومع مجموعة القضايا العربية ومشاكلها الفرعية!!

....

....

ومن أوراق السبعينات:

☐ سياسة الخطوة - خطوة التى انتهجها وقام بتسويق فلسفتها وزير الخارجية الأمريكى الأسبق "هنرى كيسنجر" - بعد انتصار ١٩٧٣ - والتى تقوم على عقد اتفاقيات ثنائية لفصل الأطراف وتقليل مخاطر تجدد القتال وبدء عملية طويلة لبناء ثقة كل طرف فى عملية التفاوض - ومن خلال التفاوض على اتفاقيتى ١٩٧٤ لفض الاشتباك فى سيناء ومرتفعات الجولان، واتفاقية سيناء الثانية فى شهر سبتمبر ١٩٧٥ - وتعتمد تلك السياسة على الادعاء بأن عدم الثقة بين مصر وسوريا وتعنت الراديكاليين العرب والتفكك العربى يحول دون التوصل إلى حل شامل..(!؟) وهى سياسة كانت تدور حول محور واحد: مواجهة التغيير الذى حدث فى مناخ الشرق الأوسط بعد أن عاد العرب إلى اللجوء للقوة العسكرية والضغط الاقتصادى.. من هنا بدأت (عملية) تغيير الاتجاهات وقطع خطوط الاتصالات داخل معادلة الحركة العربية وتهيئة المناخ لأوهام الحل الأمريكى العادل..وترسيم علاقة صداقة أمريكية - عربية!! ورغم غموض المصالح المتبادلة التى تعتمدها الولايات المتحدة لعقد أواصر الود مع العرب فإن سايروس فانس وزير خارجية الإدارة الأمريكية فى عهد الرئيس الأمريكى "جيمى كارتر" قد أزاح قدرا كبيرا من هذا

الغموض فى مذكراته والتى تقول " إنه أثناء مراجعتنا للسياسة الخارجية فى منزل كارتر فى "بلينز" اتفقنا على أن الأهمية الحيوية هى لنظم حكم مستقرة معتدلة وموالية للغرب فى الشرق الأوسط ووجود مطال إلى النفط العربى، وأنه لم يكن محلا للسؤال أن حجر الأساس فى سياسة كارتر حيال الشرق الأوسط سيبقى هو التزامنا بأمن إسرائيل ".. واعتمدت السياسة الأمريكية على تقسيم العرب إلى معتدلين وراديكاليين (متطرفون فى رفضهم للرؤية الأمريكية) وعلى الساحة العربية ـ كالمعتاد ـ اختلفت المواقف بين دول عربية تحتفظ بمواقع صداقة أمريكية وترحب بالدور الأمريكى.. ودول ترفض تأسيسا على حقيقة التوجه السياسى للإدارة الأمريكية والتزامها بالأمن الإسرائيلى!!

....

ومن أوراق السبعينات

☐ انفجار بركان الثروة العربية يرمى بالكنوز فوق الرمال التى انتصبت فوق رمالها الأعمدة الأسمنتية، وتحول الفائض إلى البنوك الغربية والأمريكية، وتراكمت الأرصدة العربية فى مصارف خارج حدودها.. وانقسم العالم العربى إلى مستويين اثنين تتباعد بينهما مستويات الغنى والفقر وتتباعد بينهما بمسافات أبعد وأعمق "وحدة المشاعر" بمعاناة واحتياجات الأخرين، وأصبحت المأساة "المضحكة" هى البحث عن عملية توافق بين نظريتين: نظرية الأمن العربى.. ونظرية الرخاء العربى.. وباعتبار ما حدث من الارتفاع الجنونى لأسعار النفط وتضخم الثروة العربية يرجع بالأساس إلى ما حدث يوم السادس من أكتوبر المجيد، وبالضرورة إعادة فتح قناة السويس للملاحة الدولية.. وفى مقابل دول "الثروة" كانت دول أخرى.. وفى المقدمة مصر تستقبل قروضا بمليارات الدولارات، وخدمة ديونها التى كبلت حركة التنمية الاقتصادية حتى المنح والمعونات ـ التى لا ترد ـ جاءت مقيدة الاتجاه نحو مصارف

استخداماتها.. كما أن الأزمات الخانقة والانهيارات الاقتصادية والعجز فى ميزانى المدفوعات والتجارى لدول تقع داخل الوطن الكبير العامر بثرواته وإمكانياته المادية و(نقوده) المتراكمة داخل مصارف الغرب - أضافت عمقا أبعد لصوره ترسم الخلل داخل المجتمع العربى سياسيا واقتصاديا.. ويتصل ذلك بالعديد من أوجه الحياة.. لجتماعيا وثقافيا..

....

هناك ظروف وعناصر واعتبارات جاءت إلى الساحة بمناخ مختلف.. ومع تشتت فى الفكر السياسى تحت ضغط الأحداث المتلاحقة المتدافعة فى أعقاب الانتصار العسكرى العربى، وتعثر استمرارية خطوط الاتصال والتشاور حول المستجدات التى طرأت على الساحة العربية بعد تباين المواقف بين مصر وسوريا حول اعتماد قرار وقف إطلاق النار على جبهات القتال المصرية - السورية - ومباحثات فك الاشتباك، ثم تعارض وتقاطع ما تحمله "أفكار" إدارة الأزمة، وكان لتضارب وتصارع تلك الأفكار والتصورات حول مفاوضات التسوية فى جنيف (١٩٧٣) أن بدأت سفينة التضامن العربى تجنح باتجاه القاع فى بحور الغربة عن الواقع وحقائق المنجزات التى حققتها روح معركة السادس من أكتوبر، وخاصة بعد الاختراق النفسى والسياسى لزيارة الرئيس السادات للقدس فى ١٩ - ٢٠ نوفمبر (١٩٧٧) والتى لم تسفر عن تحولات أساسية فى المواقف الإسرائيلية الثابتة.. ومن الواضح أن تلك البداية كانت مقدمات لانفلات حدة وعصبية العاطفة العربية وهى إحدى صور تدخل العواطف المتحررة من حكمة العقل فى إدارة الحركة العربية!!

وتجلت أزمة العقل العربى، مع أزمة المشروع العربى داخل مرحلة "تفكيك" الأمة وتجميد أطرافها بالاشتباك والتصادم الذى بلغ حد التصفية الدموية فى أقطار عدة، والتهديد بحشد الجيوش على الحدود كما حدث بين (سوريا والأردن) (مصر وليبيا) وإعلان حالة

الطوارئ العربية ـ العربية لمراقبة النوايا العدوانية العربية ـ العربية!! ومع أزمة العقل العربى.. فقد اختل ميزان العقل فى تمييز الصحيح من الخطأ، وأصبح العقل العربى يختصم دائما على البديهات والحقائق والمسلمات حين ضاعت من أمامه معالم الإرشاد!!

....

والحاصل أن حقبة السبعينيات شهدت أهم وأخطر السنوات التى ساهمت فى تشكيل مرحلة جديدة تتصدرها بدايات انهيار إطار مشروع النظام العربى بعد انتصار الأمة فى ١٩٧٣ ثم تفكك أطرافها وهزيمة إرادة التضامن ومع بدايات الزحف الأمريكى "المنفرد" لفرض الوصاية على الإقليم العربى.. ومقدمات خلق الحقبة الأمريكية وقبل سنوات من انهيار الكتلة الشيوعية ونهاية الحرب الباردة.. والتبشير بدور أمريكى بناء فى حل أزمة الشرق الأوسط!! ولحقت بهذه التطورات حركة موازية لإعادة ترسيم أو إعادة توصيف للصراع العربى الإسرائيلى عموما، ومع انفلات غرور القوة والتطرف الإسرائيلى، وخلق حقائق جديدة حتى إذا لم تكن هذه الحقائق متسقة مع التاريخ!!

وهذه الأوضاع التى خلقتها أوراق السبعينيات كان لها أثر على دولة ذات دور خاص.. ولم يكن دور مصر ـ طبيعته وحيويته ـ بعيدا عن انعكاسات هذه الدوامات التى اختلطت معها الأوراق، وجعلت الدور القائد سى حالة غياب ولو مؤقتا!! وتعطل الاتفاق على (ثوابت) رغم أحكام الجغرافية والتاريخ والانتماء وضرورات الأمن والمصالح القومية.. وبدأ الحوار حول (المتغيرات) التى جاءت إلى الساحة بمناخ مختلف!!

□□□□

الحركة البطيئة
فوق جسر المتاعب

"اعرف شيئا واحدا.. هو انني
لا اعرف شيئا"
(سقراط)

إذا كانت الأمة العربية تكتشف قدرها فى مصر.. فإن دور مصر - أيضا - يستمد أبعاد تأثيره وحركته مما حوله، بالانتماء إلى ما هو أكبر من حدوده..

وفى حقيقة الأمر فإن الأزمة العربية الشاملة التى استحوذت على عمر السنوات فيما بعد حقبة السبعينيات وكانت القضايا معلقة والمشاكل تزداد تعقيدا - خلقت عوامل سالبة حركة الدور المصرى وتأثيره فى منطقة تهب عليها رياح عاصفة من النزاعات والمشاحنات وتصادم المواقف!!

....

وأزمة الواقع العربى - مع بداية الثمانينات - كشفت عن أزمة غياب دور مصر (عربيا) نتيجة رد فعل عربى (عصبى) بمقاطعة أو عزل مصر بتجميد العلاقات الدبلوماسية معها، وحين فرضت سياسة "مفترق الطرق" أحكامها على الواقع العربى بعد أن تعددت وتنوعت وتقاطعت خطوط الإشارات التى تنظم مسار الأحداث العربية والتى كانت حركتها تدور فوق ساحة ممتدة من النزاعات والصراعات، والتشتت فى الرؤية، ومما جرف الأحداث إلى تجاوزات وتحالفات طحنت الواقع العربى داخل حرب الكلمات!!

وللإنصاف.. فإن الرئيس مبارك مع بداية ولايته الأولى كانت حساباته تنطلق من محورين أساسيين هما: التوازن.. والتصالح.. التوازن داخليا وعربيا وخارجيا.. والتصالح داخليا وعربيا.. وإذا كانت الظروف الداخلية مهيأة للتوازن والتصالح.. فإن الصورة كانت تختلف تماما على الساحة العربية المشحونة بالانفعالات.. والتوترات.. وخلق وتغذية النزاعات.. وكانت أحداث تلك المشاهد الساخنة - وقبل ساعات من تولى الرئيس مبارك قيادة مصر - قد شهدت انفجار المواجهات والتهديدات بين ليبيا والسودان، وإعلان الرئيس الأمريكى وقتئذ " ريغان" بأن الولايات المتحدة سوف تسرع بإرسال معدات عسكرية إلى السودان ومصر للرد على مغامرات التوسع الليبى..

وأعلنت الخارجية الأمريكية على لسان المتحدث باسمها " دين فيشر " بأن الولايات المتحدة ستوفد قريبا فريقا من المستشارين العسكريين الأمريكيين إلى السودان لتدريب الجيش السوداني على استخدام الأسلحة الأمريكية، وان الحكومة الأمريكية ستسارع بتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية للسودان قيمتها ٢٠٠ مليون دولار لمواجهة التهديدات الليبية!!

وفى القاهرة أعلن جعفر النميرى - الرئيس السودانى فى ذلك الوقت - وأثناء تواجده بعد المشاركة فى تشييع جنازة الرئيس السادات: يتوقع أن تهاجم القوات الليبية بلاده فى أى لحظة وأن تحاول غزوها بمساندة من موسكو والدول الشيوعية.. وأن الليبيين يقصفون قرى سودانية قرب الحدود مع تشاد بمعدل ٣ أو ٤ مرات يوميا خلال الشهرين الماضيين.. وأن القذافى يقود حملة اقتصادية ضد السودان ويرسل عملاء لشراء كميات هائلة من السلع الاستهلاكية وإغراقها فى النيل لخلق أزمة فى المواد الغذائية.. وأضاف فى حديث لوكالة "أسوشيتدبرس" أن أمريكا ستقف بكل حزم مع السودان!!

وبعد شهور معدودة من تصريح النميرى بدأت رائحة صفقة "الفلاشا" تنتشر وتثير الاشمئزاز لدى المواطن العربى وتصيب المجتمع العربى بصدمات التساؤلات التى تحمل مئات الاستفهامات وأيضا كان الدور الأمريكى فى إتمام وتنفيذ بنود المقايضة واضحا جليا لا تستره حتى التصريحات.. وحين كانت السفارة الأمريكية فى الخرطوم هى مقر غرفة العمليات والتنسيق لنقل يهود الحبشة إلى إسرائيل!!

والواقعة، أو المشهد الساخن كان كافيا لرسم صورة كاشفة للواقع العربى، والعلاقات العربية - العربية، والتدخلات الأمريكية، والتحركات الإسرائيلية!! وكان تداعى المشاهد مثيرا للدهشة والسخرية معا حين تبدلت العلاقات بين الأقطار العربية من صورة

إلى أخرى.. من تقارب إلى حدود التكامل أو الاتحاد، إلى قطيعة مشحونة بالتوتر العسكرى.. وحدث هذا بين مصر والسودان.. ليبيا ـ مصر.. الأردن ـ سوريا.. العراق ـ الأردن.. المغرب ـ الجزائر!!

....

....

ورغم "تراجيديا" الخلافات العربية التى شهدتها المنطقة، فقد كان الوعى الجماعى حاضرا بضرورة تصحيح الخلل.. وحين عادت العقول لتقرأ مجموعة الحقائق التالية:

☐ أولا: أنه لا يمكن عزل (مصر) حين تصبح القضية التى تهدد الوجود العربى ومصير حاضره ومستقبله هى قضية "الأمن القومى العربى".. ولا يمكن أيضا تجميد أو تحييد دور مصر فى مواجهة المتغيرات التى فرضت نفسها على الخريطة السياسية والاقتصادية والعسكرية العربية.. ولا يمكن ثالثا أن تستمر موجة "المجاملات الدبلوماسية" بين مصر وبقية الدول العربية نوعا من الاعتراف بحقيقة دور مصر وثقلها العربى والعالمى ودورها فى تشكيل تاريخ أمتها.. ونوعا من الرغبة "المتوجسة" والحذرة فى إعادة الدماء داخل عروق الجسد العربى بعد المقاطعة الدبلوماسية.. وضرورة إعادة صياغة القرارات التى تخلق البدايات الصحيحة للحركة العربية المؤثرة بعد سنوات من عدم وضوح الرؤية العربية فى التعامل مع معطيات النتائج المتراكمة نتيجة الحركة العربية المفقودة..

☐ ثانيا: أن دور مصر القيادى ليس حقا أعطى بالتراضى والتوافق العربى فقط.. ولكنه من ثوابت حقائق التاريخ العربى عبر قرون كانت فيها الجغرافية المصرية نقطة التقاء آمال وأحلام وتطلعات أمتها، وكان محيطها البرى ووجودها السياسى والعسكرى درعا لوطنها العربى، وأن الواقع والمنطق والواجب يفرض تصويب الميزان الاستراتيجى العربى بعودة مصر التى تشكل ركنا أساسيا فيه..

□ ثالثا: أن محاضر اتفاقيات كامب ديفيد - حجة القطيعة - كانت محددة البنود بمعاهدة مبادلة الأراضي المصرية بالسلام مع إسرائيل، ولكنها لم تحجب أو تقيد القرارات والمواقف المصرية المعلنة بوضوح: تجاه ثوابت القضية الفلسطينية والدفاع عن عروبة القدس ومواجهة ممارسات الاحتلال ضد لأهل داخل الأراضي العربية المحتلة.. والتزامات مصر القومية مع العراق - خلال اشتعال الحرب الضروس مع إيران - ودفاعها عن شرعية لبنان العربي الواحد - أثناء مأساة الحريق اللبناني - وتأمين ظهر منظمة التحرير الفلسطينية وقواتها منذ خروجها الدامي من لبنان عبر البحر الأبيض حتى محطة الوصول إلى القاهرة.. ورغبتها في إعادة ترتيب البيت العربي.. إذن فإن عروبة القرار المصري لا تقبل الرهان..

□ رابعا: أن غياب دور مصر يرتبط أيضا وربما كان السبب الرئيسي في سيطرة سنوات اللامبالاة والتشتت وانحسار مظاهر التضامن العربي.. وبعد أن خيمت على الإقليم العربي حقبة الشلل الإرادي التي اهتزت معها وسقطت معايير ومبادئ..

....

وكان ما يحدث في بر مصر - بعد تولي الرئيس محمد حسني مبارك مسئولية القيادة - يصدر إشارات واضحة لتمهيد كل الطرق لعودة ما انقطع ورأب الصدع.. كما كانت الأمة العربية - وكان ذلك واضحا على مستوى الشارع العربي - تتابع باهتمام بالغ خطوات الرئيس مبارك وبمشاعر تنسجها الآمال الطموحة حول قيادة دور مصر:

□ كانت دوائر المتابعة والتحليل تتحدث عن الطيار الذي سيقود طائرة المجتمع المصري العربي وهو متمرس على أسلوب التأني ومراجعة كافة الحسابات قبل الانطلاق بعيدا عن المخاطرة والمغامرة وأن وضوح الرؤية عنده تعد مفتاح الحركة.. وكانت العيون والقلوب والعقول تراقب بأكبر قدر ممكن من الاهتمام كيف سيواجه ذلك

"الإرث" المتراكم الطبقات وداخل تلك المعادلة الأشد تعقيدا وتأزما داخليا وعربيا.

☐ وكانت الشعوب العربية - وهى لا تزال تعانى من الجرح القومى، ولا تزال مشاعرها العاطفية تبحث عن القائد - تتحدث عن الجانب الوطنى للرئيس المصرى قائد القوات الجوية فى حرب التحرير - أكتوبر ١٩٧٣ - وتستعجل خطواته - كما تتوقع - تجاه إعلان الموقف القومى من قضايا الواقع العربى المهترئ، وتراقب اتجاه النظر إلى الحدود الشرقية المصرية، وتبنى التوقعات حول المتغيرات داخل السياسة المصرية.

☐ وكان الشعب الفلسطينى من أكثر الشعوب العربية متابعة وترقبا للمتغيرات، وانتظارا للخطوات الأولى للرئيس مبارك داخل حلبة الصراع العربى - الإسرائيلى وكيفية التعامل مع القسم الخاص باتفاقية السلام مع إسرائيل من مجمل "التركة" التى وجد نفسه مسئولا عن إدارة أزماتها، وكان المواطن الفلسطينى - سواء داخل الأراضى العربية المحتلة أو خارجها - يراقب ويتوقع - وإن كانت توقعاته فى حينها نوعا من التنبؤ - إلى أى اتجاه سوف يقود مبارك حركة الفعل المصرى (العربى) وأنه وإن لم يكن مسئولا عن منهج سابق فهو بالضرورة مسئولا عن منهج تعديل حركة الاتجاه.. وأنه كأحد أبناء العسكرية المصرية ذات الإسهام الأساسى فى جهد الدفاع عن القضية الفلسطينية لابد أن يكون لديه عمق الإيمان بالمصير العربى الحتمى، وبالمستقبل العربى الواحد، وفى ظل قناعة ثابتة.

....

....

كان الحديث عاما ومتواصلا عن الدور المصرى..

ولكن..

ومع عودة العلاقات العربية مع مصر.. وعودة جامعة الدول العربية إلى مقرها الدائم فى القاهرة.. لم يكن المناخ مهيأ لحركة

الدور المصرى، فقد كانت الساحة العربية - لا تزال - موصومة ومدانة ومجرحة، وبسبب تعدد الآراء والمواقف، وتداخل الأهواء، وتعارض المصالح.. ومن المفارقات المؤسفة - تطبيقا لما تقدم جميعه - أن الرؤية العربية للعلاقات الدولية كانت تستمد المرجع الذى تستند إليه من «نهج فكرى سياسى "خارجى" لذلك اختلطت الأمور، وتداخلت الانقسامات العربية مع تعقيدات صراعات مذهبية وفكرية.. وأصبحت التفسيرات المتعددة للمواقف تتأرجح بين الظن واليقين!!

....

وكان الوعى المفقود فوق جسر المتاعب قد صادر كل المحاولات التى يمكن أن تبحث عن (المجهول) وراء انفجارات الأحداث التى تتابعت بصورة تثير التساؤلات بعد أن توزعت الاتهامات بين الأسباب والدوافع.. وبقيت الدائرة تدور وتلف بمن داخلها، وتروسها تتآكل وهى تطحن مشاعر الرغبة فى استكشاف حقيقة ما يجرى ويحدث!! ورغم كل ذلك لا نعتقد أن الوعى كان عاجزا عن إدراك الحقائق خاصة أن تلك الحقائق لم تكن بحاجة إلى كشف المستور أو ترجمة مؤشراتها فقد كانت أمامنا أبجديات مقروءة ومسموعة!!

كانت الساحة العربية فى بداية حقبة الثمانينات تستقبل مقدمات الغزو الفكرى الثقافى، واستباحة العقل العربى.. وخطورة الغزو الثقافى أو الهيمنة الثقافية يمكن الإشارة إلى بعض جزئياتها من خلال رؤية خبير فى شئون العالم الثالث هو "سيرج لاتوش" والتى تضمنها كتابه (تغريب العالم).. يقول "لاتوش": إن تغريب العالم الثالث (ونحن فى القلب منه) هو أولاً عملية محو للثقافة وتدمير بدون استثناء للبنيات الاقتصادية والاجتماعية والعقلية التقليدية.. أن هذا الذى يعرض على سكان العالم الثالث لكى يحل محل هويتهم الثقافية الضائعة إنما يتضمن صنع شخصية وطنية عابثة ذات انتماء خداع إلى مجتمع عالمى (هو الغرب) أى أن هذا الفيض المتدفق لا يمكنه إلا أن يشكل رغبات المستقبلين، وأنماط سلوكهم وعقلياتهم،

وأساليب حياتهم، وبالتالى فإن ضياع الهوية الثقافية يساهم بدوره فى عدم استقرار الشخصية الوطنية سياسيا واقتصاديا.. "

ويتصل بذلك أيضا ـ ونقصد لختراق الشارع العربى ـ البحوث المشتركة والممولة من جهات أجنبية دون دراسة واعية تحيط بمضمون وأهداف تلك البحوث وخاصة بعد تعدد المؤسسات الأجنبية الغربية التى تقدم المنح والتمويل لإجراء البحوث الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تحت دعوى البحث العلمى والاحتكاك الثقافى مع الآخر، والاستفادة من الخبرات.. وهى فى حقيقة الأمر محاولات جادة لاكتشاف مناطق الاختراق وتمرير الأفكار. وتتبع مواقع التشققات داخل الساحة العربية، ليس على أساس عرض الخبرة والحلول الأكاديمية، ولكن على أساس متطلبات التقارير التى تخدم أهدافها المشبوهة!!

واتسعت مساحة الاختراق ـ والحديث لا يزال متصلا بالاختراق الأجنبى ـ وكما يقول المفكر الإسلامى الأستاذ فهمى هويدى "الاختراق الذى لا يعد التجنيد هو صيغته الوحيدة وإنما قد يتم أيضا من خلال "الانحياز التطوعى" الذى يلقى ترحيبا ودعما معنويا من القوى الخارجية، ونحن نعرف ـ والكلمات للأستاذ فهمى هويدى ـ نماذج من البشر تتعبد بالغرب ـ مثلا ـ دون أن تكون مجندة أو مأجورة، ولدينا قرائن عدة على دور الأصابع الأجنبية فى الحملة على الإسلام بوجه أخص، لكن القرائن ترتفع إلى مستوى الأدلة فى صدد التدخل الأجنبى لإذكاء العصبيات الدينية والعرقية عن طريق اختراق الأقليات وغوايتها، والأمر شديد الوضوح في المساندة الفرنسية للبربر فى الجزائر أو التأييد الغربى للمتمردين فى جنوب السودان والدور الأوروبى ـ الفرنسى خاصة ـ الداعم للموارنة فى لبنان.. "

....

....

وكانت التطلعات التى تحيط بحركة الدور المصرى المرتقب فى هذه المرحلة، ومع بداية ولاية القيادة المصرية الجديدة ـ تتجاوز كثيرا حدود التعقيدات التى فرضت نفسها داخل دوامة الأحوال العربية وبصفة الجمع.. كانت الأمة منهكة أو مترهلة، وخطواتها متعثرة حينا أو مقيدة أحيانا على جسر المتاعب.. وكانت الشواهد ترسم صورة "الشلل الإرادى" للقدرات والإمكانيات.. والظنون والشكوك تطيح بكل شيء!!

....

□ مثلا.. كانت مأساة الحرب اللبنانية ـ والتى استمرت أكثر من خمسة عشر عاما بآثارها وجروحها ـ لا تزال تقذف بألسنة اللهب فى كل اتجاه.. ثم بدأ الاجتياح الإسرائيلى الشامل لدولة عربية (لبنان) ١٩٨٢ ومع عجز الرؤية العربية عن تتبع جولات المبعوث الأمريكى للشرق الأوسط "فيليب حبيب" ـ وقتئذ ـ والرفض العربى لأية مؤشرات سوء الظن قد تحيط بالتنسيق الأمريكى ـ الإسرائيلى.. ثم كانت مفاجأة العلم بالضوء الأخضر لقرار إسرائيل باجتياح الأراضى العربية اللبنانية.. وبعد الهجوم الإسرائيلى بثلاث سنوات كشف "بريان أوركهارت" السكرتير العام المساعد للأمم المتحدة بأن الحكومة الإسرائيلية رفضت اقتراحا دوليا قبل اجتياح لبنان بعدة اشهر يتم التوصل من خلاله إلى اتفاق حول الترتيبات الأمنية بين كل من لبنان وإسرائيل.. وأنه اجتمع مع كل من "مناحيم بيجن" رئيس وزراء إسرائيل، وأريل شارون وزير الدفاع ـ وقتئذ ـ فى شهر فبراير ١٩٨٢ أى قبل أربعة أشهر من الغزو فى محاولة منه لإقناع الحكومة الإسرائيلية بالموافقة على الترتيبات الأمنية على الحدود المشتركة بشكل تكفله قوات الطوارئ الدولية الموجودة فى لبنان ولكن الحكومة الإسرائيلية رفضت هذا الاقتراح رفضا قاطعا.. وأن منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن مسئولة عن أى حادث أو عملية ضد إسرائيل طوال الفترة الممتدة من يوليه ١٩٨١ وحتى

الاجتياح الإسرائيلى للأراضى اللبنانية فى يونيه ١٩٨٢!!" أى أن خطة الغزو كانت فى طور الإعداد والتنسيق.. ولكن الفكر العربى كان قائما على أن الظنون من أبغض الحلال، وإثما يتنافى مع حسن النوايا!!

....

□ ومثلا.. كانت الحرب الإيرانية ـ العراقية فى بداياتها.. وبالطبع لم تكن قضية الحدود هى كلمة السر "الضائعة" داخل ذلك اللهيب المستعر الذى امتد من حدود البلدين إلى قلب العاصمتين، واستنزف الطاقات البشرية والمادية.. ولم تكن "استراتيجية العبور" إلى الإقليم العربى بعيدة عن المواجهات الدموية.. العبور إلى جغرافية ممتدة كانت أحلام "شاه إيران" قد رسمت بالإشارة بعض حدودها حين أجاب عن تساؤل يتعرض لمستقبل إيران بعد عشرين عاما هى العمر الافتراضى لآبار النفط. وقتها كانت الأطماع تنتصب فوق اتجاه إشارته التى عبرت مياه الخليج بالقول: "بالعكس هناك مخزون لمدة تزيد عن ثمانين عاما..؟" وبعد الانتقال الدرامى للسلطة من "الشاه" إلى "الإمام" فإن ملامح التغير أصابت "مضمون" الهدف أى الانتقال من مرحلة الأطماع الجغرافية والثروات الطبيعية إلى مرحلة تصدير أفكار الثورة الإيرانية وفرض "نمط" سياسى على الساحة العربية!!

ورغم أن القضية تتصل بمصير الأمن القومى العربى، فإن حقبة الانسحاب إلى داخل الذات القطرية العربية جعلت الحديث عن دور الجامعة العربية والتضامن العربى مجرد كلمات فقدت ظلها، واختلطت كل الحسابات داخل المعادلة العربية رغم وضوح الرؤية فوق الحدود الشرقية العربية.. وبالتالى فإنه ـ وبدون أية إيضاحات ـ عن وقوف المجتمع الدولى عاجزا أو راغبا عن وضع حد لتلك المأساة، فقد كانت هناك أولا مسئولية عربية قد اختبأت خلف مصالح خاصة!!

وأمام "الفرجة" العربية لمشاهد الحرب ـ المأساة.. وغياب التحرك العربى، فإن تطورات الحرب ارتبطت ببدايات التدخل السريع من القوى الخارجية فى مياه الخليج، ومظاهر الاستقطاب لقدرات وإمكانيات الدول العربية التى تطل على شواطئه!!ودعوة الحلفاء لتأييد التحرك الأمريكى بالمزيد من القطع البحرية العسكرية، وكل ذلك كان يتعدى حجم برنامج رفع العلم الأمريكى على السفن الكويتية أو مراقبة صواريخ " شط ـ بحر " الصينية (السيلكوورم) أو مجابهة التهديدات الإيرانية ـ قبل التعرض لقصف سفن النفط ـ على المدخل المؤدى للخليج بعرض (٥٠ ميلا).. ولكن الأساس أن تبدأ تجربة إحدى مراحل الصيغة الجديدة (وهى ترسم الخطوط العامة للاستراتيجية العسكرية) ونعنى بها فرض سياسة الهيمنة الأمريكية على منطقة الخليج العربى، وهى تتصل باستراتيجية الإعداد للقوة التى تسمى (السنكتوم) CenTcom أو القيادة الأمريكية الموحدة وبعد أن ترددت الأخبار ـ بعد انهيار القوة الإيرانية من فوق خريطة المصالح والتبعية الأمريكية واشتعال الحرب مع العراق ـ حول إعداد الولايات المتحدة لتجنيد قوة قوامها (٦٠٠ ألف) جندى أمريكى للدفاع عن منطقة الخليج وجنوب شرق آسيا، ورصدت المبالغ، ووضعت الخرائط والمخططات التى تضمن الدفاع عن منطقة النفوذ، وأن تكون قوات السنتكوم الوريث الشرعى لقوات التحرك السريع التى أنشئت عام ١٩٨٠ فى أعقاب سقوط الشاه، وقد أنفقت الولايات المتحدة ١٤ مليار دولار حتى عام ١٩٨٨ لتكون السنتاكوم جاهزة للتحرك، وباعتباره أكبر مشروع عسكرى تقوم به أمريكا منذ خروجها من حرب فيتنام، وكان من الضرورى الحصول على قواعد لقوات السنتكوم فى عدد من المطارات والموانى وأن تكون تلك القوات الرديف الآخر لحلف الناتو، وهدفها إحكام الطوق حول الاتحاد السوفيتى من الجهة الجنوبية (والتحرك كان قبل الزمن الخاص بانهيار الاتحاد السوفيتى وانتهاء الحرب الباردة) وحددت المؤسسة

العسكرية الأمريكية قوس اهتماماتها بتلك المنطقة التى تشهد أحداثا عميقة الأثر (من الصراعات العربية ـ الإسرائيلية، أزمات النفط، التيارات الإسلامية، الحرب العراقية ـ الإيرانية) وعوامل الانفجار كلها ـ كما هو واضح ـ ترتبط بقلب وأطراف الساحة العربية..

....

☐ ومثلا.. ومع اشتعال نيران الحرب العراقية الإيرانية.. وانهيار لبنان تحت القصف العشوائى للحرب الأهلية.. كانت الولايات المتحدة فى عهد الرئيس الأمريكى الأسبق ريغان ـ تحشد الأسطول السادس لمهاجمة الأراضى الليبية بدعوى دعمها للمنظمات الإرهابية ضد أهداف ومصالح أمريكية فى أوروبا.. وأجرت الإدارة الأمريكية مشاورات مكثفة مع حلفائها فى أوروبا الغربية للحصول على تأييدهم لعمل عسكرى ضد ليبيا حدث بالفعل فى شهر أبريل ١٩٨٦.. وشعرت الدول العربية بالقلق (فقط) بسبب الاشتباكات العسكرية وبدأت الدعوات تحث الجانبين على ممارسة ضبط النفس!!! والحركة العربية البطيئة المتثاقلة بهمومها لم تخطو خطوة واحدة باتجاه مشاعر الانتماء العربى وعجزت من خلال تصريحاتها عن مجرد الإشارة إلى ضرورات التضامن العربى أو حتى مجرد البحث عن مصير اتفاقية الدفاع العربى المشترك أو ما ردده الشعراء فى الجاهلية عن حرارة الدم العربى الذى يجرى فى عروق الكرامة العربية.. فقد كان كلام شعراء فى زمن غير الزمن!!

والغريب أن حجم الهجوم ونتائجه لم يكن على المستوى الذى ينال "الرضا" الإسرائيلى حيث جاءت التعقيبات على لسان الجنرال "عاموس ليفادون" ـ قائد سلاح الجو الإسرائيلى ـ فى ذلك الوقت.. بقوله: "إن الغارات الأمريكية ضد ليبيا لم تكن ناجحة تماما حيث ارتكب الطيارون الأمريكيون أخطاء متعددة وخطيرة بخصوص تحديد أهدافهم، ومن وجهة نظرنا فهى عملية جيدة".. واعترف بأن خمسة من الطيارين المشاركين فى العملية هم من الإسرائيليين!!

....

□ ومثلا.. فى بداية الثمانينيات كانت الحركة الأمريكية متسارعة لعملية تخليق للحقبة الإسرائيلية بالاستعانة بحالة الغيبوبة العربية.. حقبة "تخمة التفوق" الإسرائيلية التى واكبت حقبة الانكماش العربى.. وكان التوجه للخروج باقتصاد الكيان الصهيونى من الدائرة الشبه مغلقة وإنقاذه من الانهيار باعتباره دعامة أساسية للكيان السياسى والمؤسسة العسكرية.. فقد تم توقيع اتفاقية منطقة التجارة الحرة بين الولايات المتحدة وإسرائيل فى عام ١٩٨٥ والتى تعتبر الأولى من نوعها بين أمريكا وطرف (تعاقدى) ثان.. واستراتيجية التعاون التجارى عبر عنها الرئيس الأمريكى الأسبق ريغان - فى الاحتفال الذى أقيم بمناسبة التوقيع - بأنها تاريخية..وتكفل بعدا جديدا للعلاقات الخاصة بين بلاده وإسرائيل.. وتدل على مدى التزام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل ورخائها.."

وفى نفس العام تقريبا تم تشكيل (اللجنة الدولية لتنسيق حرية التجارة مع إسرائيل) فى العاصمة البريطانية وهى تمثل جهازا دوليا يضم مجموعة رجال أعمال مؤيدين لإسرائيل من سبع عشرة دولة بهدف إجبار الشركات غير العربية على انتهاك التزامها بالمقاطعة التجارية لإسرائيل!!! وحقائق التكامل الاستراتيجى بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لا يمكن حصرها داخل بعض النقاط ولكن بإيجاز غير مخل يمكن الالتفات إلى بعض مؤشراتها.. وهى: زيادة قوة التحالف الاستراتيجى - مجال حركة الدعم اللامحدود - وهو تحالف ورد فى وثيقتين موقعتين فى عام ١٩٨١ من كل من وزير الدفاع الإسرائيلى وقتئذ (شارون) ووزير الدفاع الذى جاء بعده (موشى أرنين) والاتفاق الثانى فى عام ١٩٨٣ يحدد شروط تنظيم المناورات المشتركة وتخزين المعدات الأمريكية فى إسرائيل، ثم تأتى المشاركة فى مبادرة "الدفاع الأمريكية" دعما لذلك التحالف.. والاستثمار الأمريكى (المرحلة الأولى مليار دولار) فى مشروع

الطائرة الإسرائيلية "لا فى" - الأسد المجنح - .. والتمويل الأمريكى (لعملية بناء غواصات وسفن حربية لصالح سلاح البحرية الإسرائيلية) وصرف مخصصات تمويل هذه النشاطات بشكل تدريجى.. وشهدت سنوات تخليق الحقبة الإسرائيلية منحها حق الدخول فى مناقصات وزارة الدفاع الأمريكية وهو امتياز خاص لإسرائيل وحدها علاوة على إعفائها من سداد ديونها العسكرية القديمة!!

وشهدت الحقبة الإسرائيلية علاقات أخرى تعتمد على الحركة العسكرية الممتدة عبر خطوط اتصال جديدة من المحاولات المشتركة لصناعة "القنبلة النيوترونية" والاتفاقيات السرية لإجراء التجارب النووية مع حكومة بريتوريا - جنوب أفريقيا - وتصدير ضباط وجنود إسرائيليين سبق لهم الخدمة فى القوات الخاصة لحماية رجال الأعمال والسياسيين فى كل من السلفادور وفنزويلا والمكسيك.. وتدريب فرق الأمن الفلبينية المكلفة بحراسة ديكتاتور الفلبين السابق "فرديناند ماركوس" وإعادة تشكيل فرقة "كاما نيولا" الزائيرية وهى الكتيبة الأمنية الخاصة بحماية وحراسة نظام "موبوتو سيسكو".. وهى ممارسة لتصدير الإمكانيات والقدرات العسكرية، والشعور بالتفوق وبسط النفوذ داخل مواقع جديدة أصبحت ترى مع العالم انفراد إسرائيل داخل منطقة الشرق الأوسط بديناميكية الحركة السياسية والعسكرية.

....

وفى ظل هذا المناخ من حقبة (الإنزواء للفعل العربى والانطلاق للحركة الإسرائيلية) كان من الطبيعى أن تنطلق أيضا المساومات الإسرائيلية التى تعترض انعقاد مؤتمر "الصيغة" الدولية لاحلال السلام العادل، وأصبح الإقليم العربى وعلى امتداد حقبة الثمانينيات منطقة استقصاء وجولات متكررة لمبعوثى الرئاسة الأمريكية وقد تولى "ريتشارد ميرفى" النصيب الأوفر من تلك الجولات ليجدد

اهتمامات أمريكا بإحلال السلام فيها، ولم تسفر تلك الجولات عن نتيجة واحدة محددة أي بدون جدوى لاسيما وأن الإدارة الأمريكية تعلم كل شيء عن الموقفين العربي والإسرائيلي، ورغم ذلك كانت لغة الجولات تحذر من إضاعة الفرصة المتاحة لانعقاد المؤتمر الدولي وترك الباب مفتوحا أمام ما يسمى (مبادرات جديدة).. وتشجيع المباحثات (ذات الطبيعة الاستطلاعية) مثل مباحثات شمعون بريز رئيس وزراء إسرائيل في "إيفران" بالمغرب مع الملك الحسن الثاني، ومع كل مبادرة نجد تلميحات أمريكية لمنح دول المنطقة معونات اقتصادية كبيرة!! دون وعي لأهمية عنصر الزمن الذي كان بطبيعة الحال في صالح الحركة الإسرائيلية لبسط إجراءات تغيير وجه الجغرافية الفلسطينية المحتلة!!

....

....

وجسر المتاعب العربية والحركة البطيئة المتثاقلة من فوقه كان متصلا حتى العمق الأفريقي حيث شهد التعاون العربي - الأفريقي فتورا مقطوع الصلة بأية تنظيمات تعمل على استمرارية التنسيق وتدفع حركة التعاون إلى مجالات أوثق خصوصا في ظل الظروف التي خلقتها تلك السنوات من تاريخ الأمة العربية، ومن المؤكد كان لتراجع مصر (أو تجميد دورها كما تردد من تعبيرات وقتئذ) تأثيرا كبيرا على تراجع الحماس الذي رافق عقد القمة العربية الأفريقية الأولى والوحيدة في القاهرة في شهر مارس ١٩٧٧ ومن بين قرارات هذه القمة إقامة عدة أجهزة تعقد لاجتماعات دورية منتظمة، وهي مؤتمر القمة كل ثلاث سنوات، والمؤتمر الوزاري الأفريقي العربي كل ثمانية عشر شهرا، واللجنة الدائمة تنعقد مرة كل ستة شهور وبالإضافة إلى لجنة التنسيق المكونة من رئيس المجموعتين ومن الأمينين العامين، ومجموعات العمل المتخصصة ولجنة الوساطة والتحكيم..

....

....

وفى نفس الوقت.. ورغم حالة التراجع والانكماش عربيا على مستوى القضية العربية الأولى (فلسطين) أو على مستوى العمق الاستراتيجى الأفريقى.. أو حتى على مستوى "الغفلة" التى أصابت الأمة تجاه أزمات وقضايا وأحداث ساخنة تناثرت على الساحة العربية.. كانت تلك "المفارقة" حين شغلت مشكلة أفغانستان منذ التدخل السوفيتى عام ١٩٧٩ - حيزا هاما من الاهتمامات العربية وارتفعت صيحات الحماس للدفاع عن المجاهدين الأفغان (بعض الأقطار العربية وبموجب اتجاه موقفها كانت تطلق عليهم المعارضة الأفغانية) وتم تجنيد مساحة عريضة من الإعلام العربى لتوجيه الدعوات للتبرعات المادية والانخراط فى صفوف المقاتلين للجهاد والتطوع بالقتال، وحازت قضية أفغانستان على قدر هائل من حركة الفعل العربى وانزوت بجانبها القضية العربية الفلسطينية والمقدسات الإسلامية المحتلة.. والواضح أن الانحياز وتبنى المشكلة الأفغانية كان بدافع التجاوب مع الموقف الأمريكى فلم يكن الصراع حول "كابول" سوى مواجهة عقائدية بين الوجود الشيوعى والرفض الأمريكى لتوسع السوفيت لنفوذهم داخل مواقع جديدة، فمنذ انقلاب الدولة الذى قاده الجنرال محمد داود ابن عم الملك محمد ظاهر شاه بمساعدة الشيوعيين تم تثبيت نفوذهم مع بداية حكم الرئيس "كارمال" وتولى حزب الشعب الشيوعى السلطة الحاكمة وانفراد "نجيب الله" بالقيادة ثم التزام الاتحاد السوفيتى بالدعم العسكرى للحكومة الأفغانية ودعم الولايات المتحدة الأمريكية للمعارضة الأفغانية "الإسلامية" والقضية تندرج تحت أسس صراع الحرب الباردة بين موسكو وواشنطن ومواجهة كل منهم لتمدد نفوذ الآخر!!

وبالضرورة فإن الواقع العربى وفى تلك السنوات قد انتقلت آثاره الجانبية إلى داخل هيكل جامعة الدول العربية وقيدت حتى الرغبة

الصادقة فى عقد مؤتمرات القمة فى كثير من الأحيان، وبالاعتماد على مبررات تقول "الوقت غير مناسب" وفى زمن كانت أيامه وشهوره وسنواته شاهد إثبات على مآسى التنافر لعدم وضوح الرؤية للتوازن بين الأهداف القومية العليا، والأهداف الوطنية - القطرية - ورغم ذلك فإن الرغبة فى إنهاء حالة الركود السياسى ورسم استراتيجية عربية محددة الأهداف - كانت تصطدم باصطلاح "الوقت غير مناسب" لعقد قمة عربية تبحث فى مشكلة فتح الجسور لتنقية المناخ العربى وتحقيق قدرا من التفاهم حول مجمل القضايا.. وارتفع شعار "غريب" يقول بتطبيع العلاقات العربية أى تطبيع الوفاق والإخاء العربى، وحين تخثرت رواسب أحقاد وتجذرت تفرعات المشاكل..ومع (تجليد) دور جامعة الدول العربية، وتفشى ظاهرة (الوقت غير مناسب) إنقسم الموقف العربى العام وانشطر إلى شظايا تتصادم مع بعضها البعض!!

....

ومع حالة التنافر والتشتت العربى كانت هناك حالة غريبة من الحرص على تتبع خطوات خارجية تتولى بالوكالة البحث عن حل لمشاكلنا وقضايانا.. وكان الالتزام صريحا بمبدأ (واجب اللياقة) وبمعنى المحافظة على واجب اللياقة مع القوى التى تدير أوراق اللعبة كلها - تأسيسا على مبدأ يقول أن ٩٩٪ من أوراق حل قضيتنا المحورية فى يد الولايات المتحدة الأمريكية وحيث أن ٩٩٪ من مشاكلنا وقضايانا الفرعية تتصل بالقضية الفلسطينية قضية الشرق الأوسط أو المشكلة الشرق أوسطية كما يطلق عليها - فإن هذا يعنى أن همومنا (كلها) رهن حركة الآخرين (!) وهناك من يرى أن جانبا من واجب اللياقة يفرض تقدير المصداقية فى سياسات ومواقف وحتى توجهات الولايات المتحدة (ولا أساس بالطبع لهذه المصداقية)، فإن الجانب الآخر يتضمن تفسيرا أخلاقيا للتبعية المطلقة!!

المهم.. أن مبدأ واجب اللياقة - المشار إليه - لا يختلف كثيرا عن

مفهوم واجب اللياقة من خلال قصة الرئيس الأمريكي "كالفن كوليدج" الذى رأس أمريكا بين عامى ١٩٢٣ - ١٩٢٩ ومجموعة أصدقائه حين فكر فى توجيه الدعوة إليهم لتناول الطعام معه فى البيت الأبيض، ونظرا لازدحام جدول مواعيده فقد تقرر أن يأتى الأصدقاء القدامى لتناول طعام الإفطار. وقرر الأصدقاء أن من واجب اللياقة أن يتبعوا الرئيس فيما يفعل.. وهكذا عندما تناول الرئيس قطعة من " التوست " مغطاة بالزبده والمربى فعلوا مثل ما فعل وجرى كل شىء على ما يرام حتى جاء موعد القهوة فقام المشرف على الإفطار بصب القهوة فى كل فنجان، ومد الرئيس يده وأخذ الفنجان والطبق، وفعل الضيوف مثل ما فعل، ثم صب القهوة فى الطبق وتناول قطعة من السكر ووضعها فى الطبق وصب عليه اللبن، وفعل الأصدقاء مثل ما فعل، ثم قام وهو يحمل الطبق وهم كذلك، ثم انحنى الرئيس على الأرض فانحنوا أيضا، ووضع الرئيس الطبق أمام قطته المدللة، فأسقط فى يدهم، ولاذوا بالصمت وحمرة الإحراج تكسو وجوههم!!

....

....

وكل ما سبق ليس تحديدا (شامل ومتكامل) للمتاعب العربية ومشاكلها وقضاياها، ولا ندعى القدرة على رسم الصورة واضحة المعالم والقسمات فليس الهدف من وراء ذلك إعادة سرد من ذاكرة الأجندة العربية وإنما القصد من وراء المحاولة المتواضعة كان بهدف البحث عن مسببات تلك الحركة البطيئة العاجزة عن العمل والمتابعة وتصحيح المسار. وقد تكون الصورة "متموجة" الخطوط أو تكون المحاولة - جهد فاشل فى تتبع الأحداث فوق جسر المتاعب.. ولكنها أولا وأخيرا محاولة للاقتراب من ملامح الصورة خلال عقد كامل - أو يزيد قليلا - مثل تلك المحاولة التى فعلها "جرهام سوتر لاند" حين رسم لوحة لتشرشل بالقلم الرصاص ومغطاة بطبقة رقيقة من

الطلاء الأبيض فلم تعجب الكثيرين، وعندما أرسل "سوتر لاند" صورة فوتوغرافية من اللوحة إلى "تشرشل" رد عليه برسالة قال فيها "إنها قد تكون جيدة كدراسة للشخصية فقط" أى أن الملامح غير متطابقة وأن ريشة الفنان قد جانبها التوفيق.

والشاهد.. أن التحدى الأكبر أمام الدور المصرى.. أن العبء جسيم، والقضايا متشعبة، ومعقدة، ومتداخلة، وأن المناخ المصاحب لها فرض أجواء من الشكوك والظنون وسوء النوايا.. وأصبح وضوح الرؤية أمرا شاقا، وأن الجهد الضائع فى هذه الحالة يستهلك فى تفكيك "عقد" الخطوط المتقاطعة وحل ألغازها.. وهذه العقد لا تحل ولا تنفرج!!

وكانت الرؤية المصرية تدفع أمامها بمحاولات تنقية الأجواء العربية أولا، ودون ذلك فإن أى جهد للتحرك الجاد، الفاعل والمؤثر، سوف ينتهى بالفشل قبل أن يبدأ، ويصبح رقما جديدا فى دوامة تشتت العلاقات العربية ـ العربية، وتناقض وأحيانا تصادم مواقفها.. وهي مواقف تحكمها ـ غالبا ـ مؤثرات تهب عليها من خارج الحدود!!

□□□□

البحث عن معنى..
من أين نبدأ الحساب.. وإلى أين ننتهي؟

ماذا بقي ليّ لأقول؟

كارل كراوس ـ كاتب نمساوي

لا أحد يستطيع أن يحدد بالضبط متى انفتحت أبواب الفوضى الشديدة؟!هل حين تحركت القوات العراقية قبل منتصف ليلة ٢ أغسطس ١٩٩٠ إلى داخل الكويت، وفرغت من احتلالها قبل الفجر؟! أم كانت بداية المرحلة قبل ذلك بسنوات وحين توافرت الأسباب من تفكيك أواصر الأمة التي أصبحت منقسمة الفكر والفعل والدم على نفسها.. ومن حروب أهلية وصراعات داخلية.. وحرب مسلحة دموية مع الجيران.. أو حين توافرت عوامل التدخلات الخارجية وفرض الوصاية السياسية والاقتصادية.. وحين تباعدت المسافات والمواقف بين الدول العربية ورغم تعقيدات القضايا المعلقة في المنطقة!!وحتى حين سعت دول المشرق والمغرب باتجاه "أحلام الجمع" بعيدا عن "واقع القسمة" بحثت عن صيغة "جهوية" شبه إقليمية في دوائر مغلقة لتحقيق نوع من التكامل والترابط والتعاون فيما بينها.. وجاءت التنظيمات العربية الإقليمية "الجهوية" أقرب للتوجه باستبدال التعاون العربي بصفة الجمع، بآخر له خصوصية جغرافية أو تجمع أقطاره مصالح وأهداف متقاربة أو عوامل الثراء!!

وهكذا ظهرت التجمعات الثلاثة: مجلس التعاون الخليجي ١٩٨١ ـ تجمع دول الثروة، ويركز على حماية الأمر الواقع في الخليج ـ ومجلس الاتحاد المغاربي ١٩٨٩ ـ تجمع دول المغرب العربي والذي بدا مهموما بأوروبا على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ـ ومجلس التعاون العربي والذي أعلن تأسيسه في بغداد ١٦ فبراير ١٩٨٩ بين مصر والعراق والأردن واليمن، وحرص الموقعون على اتفاقية التأسيس عل القول بأنه تجمع من أجل كل العرب وليس تكتلا ولا محورا.. بينما الواقع أنه كان يمثل طموحات فردية لم تلبث أن اختلفت فيما بينها وتنازعت وقيل فيما بعد أن المجلس كان هدفه عزل سوريا وتحييد مصر.. وفشل مجلس التعاون العربي، وتجمد مجلس الاتحاد المغاربي!!

وبصرف النظر عن المصير فإن تشكيل هذه المجالس الموازية للمنظمة العربية الأم (جامعة الدول العربية) كشف عن توجه يبتعد عن تفعيل دور الجامعة العربية وباعتبارها تنظيم قومي لمجموعة الدول العربية، ويبتعد عن هموم تعزيز العمل العربي المشترك بصيغة الجمع وترسيخ مفاهيمه.. ورغم ما قيل وقتئذ بأن ميثاق الجامعة العربية في المادة (٩) يتيح للدول الأعضاء الراغبة فيما بينها في تعاون أوثق أن تعقد ما تشاء من الاتفاقات لتحقيق هذه الأغراض!! ولكن الاتفاقات الثنائية أو متعددة الأطراف شيء آخر غير التجمعات الجهوية، ومع ظهور نظام عالمي جديد من أهم سماته السعي نحو التجمعات الاقتصادية الكبرى بدءا من الاتحاد الأوروبي وحتى مجموعة دول جنوب شرق آسيا (الآسيان) ومرورا بمجموعة دول (النافتا) في أمريكا الشمالية..

....

وواقع الحال أن الأمة العربية وهي تعاني من سنوات التشتت في الفكر والفعل، كانت على أبواب مرحلة الفوضى الشديدة، وهي تدخل في نفس الوقت ـ مع غزو العراق للكويت ـ أزمة من أصعب وأخطر أزماتها، وبعد أن صدر القرار رقم ٦٧٨ الذي أعطى لقوات التحالف ذريعة استعمال القوة لحل الأزمة وتحرير الكويت!!

....

الطريف ـ وربما كان من المفارقات التاريخية ـ أن الأمة العربية وهي تواجه أول حالة سطو مسلح عربي من دولة عربية على دولة عربية أخرى مجاورة لها واتسعت الشقوق والتصدعات بين أركان الوطن الواحد.. كانت بريطانيا وفرنسا (يوم السبت ١٩٩٠/١٢/١) تحتفلان بافتتاح أول طريق بري يربط القارة الأوروبية وبريطانيا منذ العصر الجليدي، وبالتقاء طرفي النفق

الذي يصل بينهما ويمر تحت بحر المانش.. والتقى عامل فرنسي وآخر بريطاني وتصافحا في نقطة الالتقاء التي تقع على عمق مائة متر تحت سطح البحر.. وفي حين كانت الصحراء العربية الشرقية تستعد لأصوات الرصاص وهدير المدافع!!

وهذه نقطة أردت أن أضيفها بقصد التوضيح..

....

كان العالم العربي وسط هذا كله ينتظر الموقف المصري من الأزمة، وحين كان اتخاذ موقف محدد وقاطع تجاه التطورات أمرا متعثرا بين الحيرة والارتباك، ومما خلق نوع من التمزق العميق بين رفض الغزو العراقي للكويت، ورفض التدخل العسكري الأمريكي في الأزمة.. وإلى جانب التمزق كان العجز عن الحركة والفعل واضحا، بل عن التفكير قبل الفعل.. والأزمة طرحت نفسها كنوع من التحدي للدور المصري!!

كان العالم العربي يترقب حركة الدور المصري.. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية بدورها ترى أن دور مصر (بتأثيره المحتمل، وبثقل حجم مصر العربي) هو مكمن الخطر الذي ينبغي حصره أو حصاره أو احتوائه أو استقطاب حركته إلى جانب حركة قوات التحالف.. وكانت القيادة العراقية - أيضا - وعلى نفس المسار تحاول أن تجد مبررا لاستثمار الموقف المصري إلى جانبها أو على الأقل تحييد دور مصر!!

....

ورغم أن دور مصر أصبح في هذه الأزمة مجللا بقدر كبير من الالتباس، وقدر كبير من اللغط حوله.. إلا أنه في حقيقة الأمر كان دورا يحاول أن يتجنب لعبة الأخطاء في المنطقة.. وأن الالتباس حول الدور كان بسبب محاولة التوافق بين الموقف الرسمي للدول العربية والذي كان مختلفا بدرجات متفاوتة ومتناقضة.. وتشير الوثائق إلى أن تقدير الموقف الذي تم إعداده

للرئيس مبارك ـ كان بعيد النظر إلى حد كبير، ومنطقيا ومعقولا، ويضع في الاعتبار التدخل العسكري الأمريكي المحتمل، والتدخل الإسرائيلي، والتدخل الإيراني في الأزمة.. وأن القاهرة مطالبة بحصر نطاق الأزمة قدر ما تستطيع حتى بإعطاء الانسحاب العراقي الحتمي غطاء دبلوماسيا يسمح له بالخروج من الكويت دون إبطاء، ودون إحراج إذا كان ذلك ممكنا، ويتحتم على مصر أن تجند العالم العربي كله لممارسة أقصى درجة من الضغط السياسي على بغداد، ويمكن عمل ذلك عن طريق اجتماع وزراء الخارجية العرب..

ويقول الأستاذ محمد حسنين هيكل (كتاب: حرب الخليج.. أوهام القوة والنصر) أن الرئيس مبارك كان يتصرف في الأزمة بحسابات عملية وواقعية مؤداها: (١) أن الوضع السياسي العربي كما رآه قبل وبعد الأزمة، كان وضعا غير مرض، وكان محققا أن ينفجر في أي لحظة من اللحظات.. (٢) وعندما جرى احتلال الكويت وانفجرت الأزمة فإنها كانت في تقديره واصلة إلى حرب لاشك فيها، كما أن نتيجة هذه الحرب بدورها ليست موضع شك.. (٣) وكان حسابه في النهاية أنه إذا جاءت الحرب فإنه لأكثر من سبب لا ينبغي أن يجد نفسه في معسكر المنهزمين، فهو بذلك يتحمل تبعات لا دخل له فيها، وإذا كانت مسئولياته تطالبه بعمل شيء لتفادي وقوع كارثة فهو على استعداد للقيام به، لكن هناك حدا لا ينبغي تجاوزه، فإذا لم تنفع جهوده، فقد أدى ما عليه.. ولقد أدت هذه السياسة لمصر فرصة أداء دور ظاهر على ساحة الأزمة خصوصا في مراحلها الأولى.

والواضح أنه كان هناك جانب إنساني يتصل بالمشاعر وله تأثير كبير، حين شعرت مصر أن أحد الشركاء في مجلس التعاون العربي كان فاقدا للمصداقية بشأن نواياه في المستقبل القريب، وأن هناك قدرا من سوء النوايا كان متوافرا ويحاول أن

يحجب عن مصر حقيقة ما يتم تدبيره أو ما يتم التفكير فيه، ولذلك فإن الغزو يظهر مصر بمظهر الدولة التي تلاعب بها الآخرون!! وبالطبع فإن مصر أكبر كثيرا من أن تتجه نحوها خطيئة هذا التصور. كما أن دور مصر ليس عبئا عليها، ولكنه مسئولية تجاه أمتها ولضرورات الأمن والمصلحة العليا وفي عالم بدأ مرحلة جديدة من توازنات المصالح بدلا من توازنات القوة..

والواضح ـ أيضا ـ أن عناصر الحقيقة كانت ضائعة بين جميع الأطراف.. وحتى بعد أن انتهت عاصفة الصحراء بتدمير وحصار دولة عربية وتحرير أخرى، ومنح التواجد الشرعي للقوات الأجنبية بالاتفاقيات وعقود الامتياز فوق مياه وأراض دول الخليج العربي.. فإن الأمة خرجت من الأزمة أكثر استسلاما لليأس والإحباط والوصاية الخارجية!!

....

....

وأصبح ملف أزمة الخليج عنوانا للهموم العربية، وبعد أن جرت محاولات "تصنيم" هذه الأزمة، وتثبيتها شاهدا لتصدع وانهيار العلاقات العربية ـ العربية، واتخاذها ملاذا للطعن في كل مقومات وعناصر الأمة.. والاعتماد عليها في طرح مبررات الخوف وعدم الثقة في أي طرف عربي، وفي مقابل الاحتماء بالثقة في صداقة ومساندة أي طرف خارجي.. ومقاومة أية محاولة للمصالحة القومية العربية، ومن بينها مبادرة الدكتور عصمت عبدالمجيد ـ أمين عام جامعة الدول العربية وقتئذ ـ التي تقدم بها في الثاني والعشرين من مارس ١٩٩٣ وتضمنت رؤيته وأفكاره حول ما يراه ضروريا لاستعادة التضامن العربي، وإعادة بناء الثقة والطمأنينة داخل الأسرة العربية من خلال: البدء في إقامة بنية الأمن القومي العربي.. ووضع الضمانات وتحديد الالتزامات التي تجعل ما جرى في صيف عام ١٩٩٠

حدثا لا يجب ولا يجوز أن يتكرر أبدا.. وإعلان مبدأ احترام استقلال الدول العربية وسلامة أراضيها وسيادتها على ثرواتها وعدم التدخل في شئونها الداخلية.. واحتواء أزمة الخليج بمختلف مراحلها ونتائجها تمهيدا لإغلاق ملف هذه الأزمة وإخراجه من دائرة الهموم العربية..

والشاهد.. أن دور مصر كان حاضرا، ومتحركا، ومتواصلا، على ساحة تفتقد لأبسط نوايا الرغبة في المصالحة العربية.. رغم أن التاريخ يعلمنا أن الأمم لا يمكن أن تظل أسيرة محنة أو صدمة، فهناك أمم عانت صدمات كانت أشد وأعظم مما عانينا، لكنها نهضت وأعادت بناء ذاتها.. ولكن المشكلة - التي واجهت حركة الدور المصري - أن فقدان الثقة (عربيا) والاعتماد على الثقة (أمريكيا) في منطقة الخليج تحديدا، كان أقوى من كل محاولات مصر لتنقية الأجواء العربية..

والمؤسف والمحزن - معا - أن إغلاق ملف أزمة الخليج ارتبط بفتح ملف السطو المسلح على دولة عربية كبرى (العراق) مع الغزو الأمريكي البريطاني في شهر مارس ٢٠٠٣ وحتى حين سقطت بغداد في التاسع من أبريل ٢٠٠٣ في يد القوات الأمريكية كانت مشاعر "التشفي" والفرح داخل بعض دول الجوار الجغرافي للعراق، مثيرا للأحزان وباعتباره فعلا مذموما!!

....

والحاصل أنه مع زحام المتغيرات المتدافعة، كان العالم العربي تمسك به أزمات وصلت تداعياتها إلى حيث أفقدته الثقة بنفسه، وإصابته بحالة من الإحباط يهرب منها البعض إما بالاستسلام لليأس، وإما بالانسياق إلى خداع النفس.. وخيمت حالة من الفوضى العارمة على العالم العربي، وهي فوضى تضغط على كل معنى فيه: الهوية وأصولها، والشرعية ومصادرها، والقيم ومرجعياتها، بل تضغط على الحق والحياة والحرية في أبسط

تجلياتها!!

وهذه الفوضى ـ داخل أمة تتوجع في صمت ـ قد تقترب في بعض ملامحها من فوضى أخرى وهي "الفوضى الخلاقة" في الفكر السياسي الأمريكي..ويصف العالم المصري دكتور أحمد زويل نظرية "الفوضى الخلاقة" بأنها نظرية علمية في الأساس وليست سياسية، وترتبط بأشياء كثيرة في الكون يعجز الإنسان عن فهمها حتى في ذات الإنسان نفسه، وهي تعني اتجاه الظواهر من النظام إلى اللانظام وأن الساسة الأمريكيين والإسرائيليين يسعون إلى خلق فوضى في العراق وفلسطين وغيرهما، ثم الاستفادة من هذه الفوضى في خلق نظام يتماشى مع مصالحهم، ولكن إذا نجحنا في توحيد طاقاتنا كأمة واحدة تكون لنا كلمة وقدرة تجعل العالم يحترمنا.. وقال د. زويل ـ في الصالون الثقافي في دار الأوبرا المصرية صيف ٢٠٠٦ ـ أن الفوضى الخلاقة ظاهرة علمية حيرت العلماء منذ مئات السنين، وهي ظاهرة اجتماعية أيضا تخضع لتأثير الزمن، فالقاعدة العلمية تقول إن كل الظواهر في الطبيعة لديها قابلية للانحلال أو عدم النظام، مثل قطعة ثلج متماسكة في شكل قالب، وعندما تم تعريضها لدرجة الحرارة العادية ذابت وانحلت جزئياتها بعد أن كانت في صورة منظمة، وهذا يعني أنه بمرور الوقت سينحل النظام ويصير إلى لا نظام أو فوضى.. والأجسام عموما لديها بطبيعة القانون الميل إلى الفوضى، وكلما زاد الزمن زادت قابليتها للفوضى.. وهناك إمكانية للتحول من الفوضى للنظام في الكيمياء وفي المجتمعات أيضا.. وفي الكيمياء يمكن تحويل ذراتها من الهمجية إلى النظام عن طريق الإرشاد وهو ما يشبه في المجتمعات الدستور والقوانين. فمن ذرات الضوء الهمجية يمكن بالإرشاد الوصول إلى اندماج نووي هائل أو الليزر. وكذلك المجتمعات عندما توضع لها ضوابط يمكن أن تصبح قوة

خارقة.. فالزمن يمكن أن يؤثر ونخرج من الفوضى إلى النظام.. وهناك فرق بين حقيقة الفوضى الخلاقة العلمية، وبين المصطلح الذي يطلقه السياسيون مؤخرا، فالفوضى الخلاقة ظاهرة موجودة في العلم. لكن استخدامها في العراق ولبنان وفلسطين يقصد به السياسيون الغربيون اتركوهم إلى أن يقضوا على بعضهم البعض أو "سيبوهم لما يخلصوا على بعض" فهذه ليست فوضى خلاقة وإنما فوضى مدمرة!

وهناك توضيح آخر للظروف والأحوال العربية وعلى هامش الرغبة الأمريكية في الفوضى الخلاقة - ومن وجهة نظر العالم الدكتور أحمد زويل - بأن العرب أصبحوا خارج " الملاعب ".. وأن المتاح والممكن أمامهم هو اللعب في " الحواري والأزقة " وأن أحد المفاصل الأساسية في أوضاعنا، أننا أصبحنا خارج الملعب الرئيسي.. والرجل لم يات بجديد، ولكن كلماته تحمل قدرا كبيرا من الأسى والحزن،، وكأنه يرثي واقع أمه!! وأتصور أن رجلا بوزن "أحمد زويل" يتحسب جيدا لكلماته، والتي تخضع غالبا للغة الحقيقة العلمية، وهو يتحدث عن واقع " الأحوال العربية " وبرؤية تبتعد تماما عن لغة العواطف، وحتى لو كانت المشاعر تتدفق بالأسى!!وصاحب نظرية "الفيمتو ثانية" يطل على المشهد العربي العام بحسابات المعادلة الرقمية، أو المنظومة الاقتصادية والسياسية والعلمية التي تجعل لوجود الأمة كيانا يشعر به الآخرون.. وهو يرى أن العرب بلا وجود على خريطة العالم، حتى أن الغرب أصبح يضعهم ضمن صحارى أفريقيا علميا وفكريا، وأن المشكلة الأخطر أن المجتمع العربي أصبح وزنه ثقيلا وجسده مترهلا للغاية.. وبمعنى أن العرب كدسوا الدولارات في جيوبهم، واللحوم والدهون في أجسادهم، ولم تعد لديهم القدرة على الحركة والتطور، وأنه على المستوى العام تراكمت المشاكل السياسية والفكرية، وبالتالي أصاب الترهل كل

شيء في حياتنا!!

وصحيح.. الرجل لم يأت بجديد في تشخيص أحوالنا، ولكن كلماته ـ كالعادة ـ كانت أكثر تحديدا في توصيف حالة الترهل والعجز.. وأن العرب لا يمتلكون أي عناصر قوة تجعل لهم وجودا في عالم لا يتحرك إلا بدافع القوة.. وليست قوة السلاح والجيوش فقط، وإنما قوة المجتمعات: العلم، والاقتصاد، والصناعة، والتماسك الداخلي!! وبإيجاز كما يقول د. زويل ـ وهو نجم في سماء العلم ـ فإن العقل العربي كسلان، ومسطح، وجسده مترهل، ثم حالة متدهورة من اللامبالاة!!!وللإنصاف.. فإن الرجل لا يدّعي بأن باعه في السياسة لا يقل رغم تواضعه عن باعه في العلم، أو أنه يمسك بأطراف الحقائق الجديدة.. لأن الحقائق واضحة وتجرح مشاعرنا بالأسى منذ سنوات.. ولكن رؤيته ـ وبصفاء فكر ورجاحة عقل ـ تقول بأن الخطاب السياسي العربي قد سجل حالة فريدة، وباعتماده على لغة العواطف ومفردات " الواجب الإنساني "!! وقد يكون مقبولا أن تكون هذه هي لغة حكماء ونبلاء العرب فيما بينهم.. ولكن ليس منطقيا أن تكون هي لغة العلاقات الدولية القائمة على المصالح المشتركة وعلى لغة القوة!! وليس منطقيا كذلك أن الخطاب السياسي العربي تكثر فيه كلمة (نطالب) بينما من يطالب يجب أن تكون لديه القدرة على أن يطالب، وأن يكون عنده المنظومة التي تدفع الآخرين للاستجابة!!

....

وإذا كان الرجل ـ وهو أحد رموز العلم في عالمنا المعاصر ـ لم يأت بجديد في تشخيص أحوالنا وأوضاعنا.. إلا أنه قد أعادنا مرة أخرى إلي قراءة ملامح الصورة، وأننا في حالة أسوأ من "الغياب" وغير قادرين على صنع القرار. لا أحد في العالم العربي قادرا، ولا أحد لديه القدرة!! وأن الوضع العربي الراهن

يجعل كل طرف يهتم بنفسه، وهذا يحدث وقت الأزمات، وهي متسلسلة ومتواصلة، ومن العراق إلى الصومال إلى السودان.. وكانت في المقدمة يوما ما "القضية العربية الأم" القضية الفلسطينية، والتي تحولت مع التراجع العربي إلى "أزمة عملية السلام في المنطقة" والتي تحتك بأزمة الوضع الفلسطيني الداخلي.. فضلا عن الأزمات النائمة والقضايا المعلقة ومن لبنان إلى سوريا، ومرورا بأطراف المغرب العربي.. كل طرف عربي يبحث عن "خلاصه" الخاص، وبمعنى أن الكل يهرب.. وأننا نعيش لحظة هروب في التاريخ العربي!!!

وفي هذه الأجواء كان البحث جاريا - ولو بصيغة التساؤل - عن دور مصر؟!

والتساؤل كان عن دور الدولة القائدة وهو دور يتسم بتحمل المسئولية والتضحية، ليس دور الترف بل دور العبء، ومن المهم تفاعل الدولة القائد مع باقي أطراف النظام العربي الذي تقوده، وأن يترتب على عملية التفاعل هذه تحقيق مصالح كافة الأطراف.. ولا شك أن الدولة القائد تدرك تمام الإدراك بأن دورها على المستوى العالمي لا يستند إلا على الركيزة الثابتة والعميقة الجذور وهي الركيزة العربية، وأن الدوائر الجديدة أو المتجددة للعمل والسياسة المصرية هي دوائر مضافة للقاعدة الأساسية وليست بديلا عنها، أو تهميشا لوضعها.. ولكن كما أن للدولة القائد دورها فإنه من الضروري في نفس الوقت أن تدرك الدول العربية الأخرى أن مساندتها للدولة القائد واجب ولصالح تلك الدول أولا ولصالح العمل العربي المشترك ومستقبل المسيرة العربية ثانيا ولصالح الدولة القائد ثالثا.

وشواهد الأحوال تقول أن الأمة تواجه أزمة تخيم بالبلادة والشلل بعرض الأفق كله، وكأن أستار الصمت وأسواره نزلت على العالم العربي.. وأن الأمة في حالة الفراغ السياسي لم تكن

مـهيـأة، أو قادرة، أو راغـبة في مـساندة الدولة القـائد ـ وربما حدث العكس في حالات كثيرة!! ـ وإن دور مصر الذي تبحث عنه التسـاؤلات الحائرة والقلقة، كان بدوره مـحاصرا بحقـائق تحدد أبرز ملامح الإقليم العربي وهي:

☐ الحقـيقـة الأولى: أن العالم العـربي قد اختلـت موازنة من الداخل، وأن الأمن العربي المشترك قد اهتز عند قوائمه.. والقواعد العـسكرية والإتفـاقيـات الأمنيـة ـ في صـورة امـتيـازات ـ مع الولايات المتـحدة قد بسطت وفـرضـت أحكامهـا، وأصبح التـأثير الأمريكي نافذا.. صـحيح أن بعضـهم اختار التعاقد وتسليم مفاتيح الأمن الوطني للولايات المتـحـدة وضمـيره مـستـريح، وبعضـهم اختار وضميره مازال قلقا.. وفي كل الأحوال فإن الذين يتطلعون إلى الولايات المتـحـدة كي تحمـيـهم ليس أمـامهـم أن يعارضـوا خططها!!

☐ الحقـيقة الثـانية: انفك التـماسك واختـل التوازن بين الدول العربية، وحتى الإطار المحيط بها ـ جـغرافيا ـ أصابته هو الآخر شـقوق وشـروخ.. وانتـهى الأمـر بغـالبـية الدول العـربيـة ـ أو مجتمعـة كلها ـ أن تصبح مروضة، مستأنسة، وتتـفق فيما بينها على قـرارات في الفراغ.. ويحـدث ذلك في القرارات السـياسـية، وفي القرارات الاقتصادية، وفي غـير ذلك من المجالات، وتكاليفه على الأمن القومي العربي فادحة (!؟!)

☐ الحقيقـة الثالثة: وبلغة الأرقام فإن أكـثر من عشرين دولة عربـية ترسم لوحـة سرياليـة للوطن العربي.. من بينهـا ثلاث أو أربع دول فاعلة في المنطقة وليس أكثر، وحتى فـاعليتها أصبحت باهتة أو واهنة مهادنة!! وهناك دول لا أمل فـيها ولا فائدة، وهي مزدحـمة بأسبـاب التناقض الاجتمـاعي والتخلف والفـقر!! ودول عربية أخرى تخضع لتـوصيف " لا حول ولا قوة " ولا تستطيع التغلب على مخاوفها الأمنية والسيـاسية، وسوف يفزعها أن تجد

نفسها أمام التزامات قومية محددة وواضحة (!!!)

والمأساة التي ترتبت على ما سبق: هي الانصراف إلى استئناس هذا الواقع، وبعد أن تم اللعب بالتاريخ، وانقلب الحال، وأضحى كل واحد في الإقليم العربي بمفرده، ويسعى للخلاص فوق بقايا أو شظايا فكرة المشروع القومي للأمة، وحتى اختل توافق الأطراف في أمة أصبح بعدها السياسي وبمحتواه القومي مضروبا!!

□ الحقيقة الرابعة: وجود حساسيات بين دول عربية تختلف في مصالحها وفي غيبة استراتيجية عامة وشاملة ومستمرة لأمة - المفروض - أنه يربطها نفس المستقبل ويجمعها نفس المصير..وربما كان ذلك هو بعض سبب الخلافات حول تعطيل رد الفعل العربي، وطالما أن العالم العربي مجموعة إرادات موزعة، وأحيانا متنافرة ومتصادمة، وبالضرورة ليست خاضعة لإيقاع واحد، وهكذا يبدو النظام العربي - وفي مجمله - قد ضاع منه هدفه الرئيسي!!!

□ الحقيقة الخامسة: حركة خارجية - أمريكية أوروبية - تحاول أن تملأ المنطقة بنظام الشرق الأوسط الكبير..وهي بالطبع ليست مجرد تصورات تحملها الرياح إلى منطقة الشرق الأوسط وشعوبه وممالكه، ولكنها " مشروع قرارات للتغيير والإصلاح " في صورة مبادرات أعلنت عن نفسها صراحة هذه المرة وليس بالخديعة والمراوغة كما تعودنا.. ويبدو أن أحدا لم يعد مستعدا للتفكير مرة أخرى بسرعة في كل ما يجرى، وقبل أن نصبح كمن يدعو أنفسهم إلى مهرجان صاخب تدور أحداثه فوق أراضيهم(!؟!)

□ الحقيقة السادسة: أن أوراق لعبة التوازن الدولي قد اختلطت بالتطورات الأخيرة في المنطقة العربية.. ثم جاءت عاصفة الظروف الأخيرة بعد احتلال العراق تدفع الأمور إلى دوامات

أكثر تعقيدا في منطقة توتر وقلق وفي ذلك الوقت الحافل بالتأثيرات الدرامية!!!

□ الحقيقة السابعة: هناك عنصر ضاغط بقسوة الآن.. وهو عنصر يمكن أن نسميه عنصر الإيقاع الزمني للحركة الأمريكية فوق الإقليم العربي..وأصبح كل شيء ـ تقريبا ـ في بلادنا العربية المكشوفة معرضا ومستهدفا.. شواهد الأحوال تقول لنا أن هذه الأمة تعيش ـ جغرافياً ـ داخل منطقة نفوذ أمريكية، وأن هناك صورا متعددة من أشكال الوصاية والهيمنة، وإلى تلك الدرجة المتقدمة في بعض المواقع العربية من عقود المشاركة في الدفاع عن الأمن العربي!! وأن النفوذ الأمريكي قد تجاوز كثيرا صيغة تقليدية كان يطلق عليها " التبعية العربية للصديق الأمريكي ".. وبمعنى: ساحة عربية مفتوحة أمام السلطة والسطوة الأمريكية.. وساحة عربية مفتوحة للفكر والثقافة الأمريكية.. وساحة مفتوحة للدور الأمريكي.. وسوق مفتوحة للاقتصاد الأمريكي.. ولا تقف الأمور عند هذا الحد، لأن النفوذ الأمريكي أكبر من هذه التصورات وأشمل، ويلقى بظلاله على صياغة وصناعة القرارات العربية أحيانا كثيرة(!؟!)

....

ونحن لا ننكر أن الأنظمة العربية ـ كانت ولا تزال ـ في حيرة من أمرها.. في مأزق حرج.. مأزق تتصادم فيه ضرورات وأحكام الصداقة الأمريكية.. مع مقتضيات وواجب المسئولية الوطنية والقومية!!

وفي الجملة.. فقد توزعت مواقف الدول العربية حسب الاقتراب من حدود وأحكام الصداقة الأمريكية.. إلى ثلاث طوائف:

□ دول عربية تحافظ على أصول أو (لعبة) الصداقة.. وهي ترى أن الالتصاق بالجدار الأمريكي يوفر لها مظلة الحماية للأمن

والمصلحة.. الأمن وقد يبدو في النطاق الشخصي أو الذاتي، والمصلحة بمفهومها الضيق!!

□ ودول عربية تسعى لنيل الرضا وإلحاقها فيما بعد إلى دائرة الأصدقاء.. وهي تقدم فروض الطاعة، وتحاول أن تثبت أنها يمكن أن يعتمد عليها أمريكيا!!

□ ودول عربية لا يتم تصنيفها في دائرة الأصدقاء، ولكنها لا تجرؤ أن يتم تصنيفها في دائرة الأعداء.. وهي - بإيجاز غير مخل - تقف على الهامش، لا تعترض على شيء، وإن كانت لا تخفي الرغبة في الاقتراب أكثر وأكثر من حدود الصداقة والتبعية!!

والنتيجة.. أن التناقض كان حادا بين ضرورات التفاهم مع السياسات والتحركات والمواقف الأمريكية وبين شواهد سوء التفاهم الكبير مع مطالب الشعوب العربية وتحركاتها!!ومن هنا قد نجد تفسيرات مقنعة للسياسات والمواقف التي اتخذتها الأنظمة العربية، وتأسيسا على نظرية (أصول وأحكام الصداقة الأمريكية) وعلى أية حال هناك خلط شديد بين الصداقة والتبعية.. فالصداقة تحددها موازين القوى وعلاقات مصالح متبادلة ومتوازنة بين قوتين، وعلى أسس من التفاهم تراعي سيادة واستقلالية قرار كل منهما.. أما التبعية فهي شيء آخر تماما.. هي علاقة أدنى بين دولة كبرى ذات سلطان غلاب، وبين دولة أخرى عليها فقط أن تتلقى المطالب والتوجيهات، أي دولة لها دور أو وظيفة، ومقابل وعود بـاستقرار "كرسي" القيادة.. وهي بالطبع علاقة خارج نطاق السيادة والاحترام!!

والخلط الشديد بين الصداقة والتبعية.. دفع ثمنه قادة دول من هاييتي إلى الفلبين ومرورا بشاه إيران.. وغيرهم ممن كانوا يتصورون أنهم حلفاء أو أصدقاء أمريكا، وكان رهانهم دائما على "السيد الأمريكي"!!

....

....

والمشكلة أن النقطة الجوهرية في محنة العالم العربي قد تجاوزت كل العناصر التي تؤثر على التماسك والتناسق والتوازن، فكل هذه الأوضاع دخلت عليها تغييرات داهمة وخطرة، وهناك من يريد أن يملأ المنطقة العربية بنظام آخر تتوفر له هوية مستجدة، وإطار أكثر اتساعًا ـ هوية على المشاع ـ ومن هذه النقطة نستطيع أن نتابع حالة الانفلات والتشتت، وحالة شبه مستعصية من الترهل والعجز (!؟!)

....

وهذه الحالة أو الصورة الشاملة للأوضاع في العالم العربي قد تأملها أستاذنا الكبير محمد حسنين هيكل منذ سنوات، ووضع توصيفا دراميا مبدعا لها، وقد أجاد بالفعل التعبير عن الإحساس الغريب الذي يراودنا في تلك اللحظة من الزمن الجاري.. إحساس بأننا جميعا في العالم العربي ركاب على طائرة مخطوفة.. والطائرة الضخمة تدخل وسط العاصفة، الجو يغيم، السحب المشحونة تتصادم، البرق يلمع بقرب الأجنحة كأنه لسعات سوط له أكثر من لسان.. والمشاعر تتوتر في الطائرة، والأعصاب مشدودة، والقلق يمسك بالأنفاس.. الطائرة مخطوفة وعلى الكل أن يلزم مكانه ولا يتحرك، ولا أحد يسألنا في شيء، ولا نحن قادرون على أن ننطق بشيء.. والعاصفة عاتية والخطر مجنون، والمصير علمه عند الله، ونحن في طائرة مخطوفة بين السماء والأرض يتحكم فيها حامل مسدس!! صورة مفزعة ومع ذلك فهي قريبة من واقع الحال الذي نعيش فيه!؟!

والعاصفة مازالت تلعب بالطائرة المخطوفة.. ونحن جميعا في العالم العربي ـ ركاب هذه الطائرة ـ نعرف جيدا كيف وصلنا إلى هذه الحال؟ وكيف فقدنا السيطرة على الطائرة وعلى كيفية

اتخاذ القرار وعلى وسائل فرض القرار؟!

وركاب الطائرة المخطوفة - يأسا أو عجزا أو استسلاما للواقع - قد فوضوا أمرهم للمصادفات ربما تحمل إليهم ما لم يخطر على بال حتى تمرق الطائرة من سحب الأزمة وحتى ينتظم خط سيرها في الفضاء العالي!!

وهذه بعض ملامح الصورة التي نعرفها جميعا ونعرف مشاعرنا إزاءها، حركة غامضة في الطائرة المخطوفة(!؟!)

ويظل التساؤل قائما: ما الذي يفعله العرب بأنفسهم!؟! هناك موقف مؤسف ومحزن في العالم العربي، وكان يجب أن ننسق سياستنا مع بعضنا البعض ولكننا لم نفعل، أو فشلنا، وقد أدركنا أننا لا نستطيع ولم نستطيع في ظل قيود التبعية وغياب الإرادة السياسية المستقلة..

وأتصور أن هناك تجاوزا في أخطاء الحسابات لو حملّنا دور مصر مسئولية تقصير في مواجهة تطورات الأحداث فوق المسرح السياسي العربي وقد ازدحمت وتدافعت حوله كل الألوان.. وإذا كانت مصر مؤهلة لقيادة جهد تنسيقي عربي، فإن الساحة العربية غير مؤهلة للاستقبال والتجاوب.. وأن أي جهد سياسي أو حتى دبلوماسي لدور مصر الإقليمي والعربي،كان عليه أن يتخطى حواجز كثيرة عربيا وأمريكيا تتحسب جيدا لحركة الدور المصري.. وكان عليه أن يحتك احتكاكا مباشرا - وبالتصادم - مع مواقف عربية لها توجهاتها الخاصة " المقيدة " بتوجهات خارجية!! وكان عليه أن يتعامل مع تعقيدات ميراث التشتت والتفتت والشكوك والظنون التي تفعل فعلها على الساحة العربية!!وكانت النتيجة - كما نرى - أننا تركنا للآخرين حقوق الوصاية على أحوالنا ومقدراتنا وتحركاتنا وترسيم حدود المستقبل:

☐ هناك من يريد أن يملأ المنطقة بنظام عربي تتوفر له أسباب

التاريخ.. لا يغفر الذنوب

هذا الركام الضبابي ليس العروبة

هذا ضريح..

تمدد من آخر المتوسط حتى الخليج

الشاعر محمد سليمان

وفى ظل المناخ العربى العام - والأمواج متلاطمة والعواصف تهب كاسحة على المنطقة - وقبل أن يكون التساؤل حائرا حول دور مصر.. كان التساؤل القائم وبمشاعر القلق والخوف والإحباط: حول (معنى) كل ما يجرى ويحدث على الساحة العربية؟!

صحيح.. كل شيء له معنى.. أو يجب أن يكون له معنى.. حتى الكلام الفارغ إذا صدر عن إنسان فنحن نفكر فى هذا الذى قال. فنقول: هذه هلوسة.. وهذا تخريف مثلا.. المهم أن نضع صفة أو نصدر حكما على هذا الذى نسمعه - والكلمات للأستاذ أنيس منصور - وبالتأكيد هناك معنى لكل ما يقال، وكل ما يحدث ويجرى، والعقل لا يستريح إلا إذا عرف وفهم.. حتى فى دنيا السياسة وعالم الدبلوماسية، فإن التصريحات التى لها أكثر من وجه، ومائة لون، لها معنى..أو المفروض أنها تحمل وتعبر عن معنى.. حتى ولو تباعدت معانى الكلمات، حتى ولو توافرت سوء النيات أو سوء الفهم!!

....

وقد يكون المعنى الصريح لما حدث ويجرى: أن الأمة العربية فقدت القدرة على الفعل والحركة.. وكأن الجميع قد ترك للأقدار أو المصادفات أن تفعل ما تشاء!! وأتمنى لو أن كل مواطن عربى - يعنيه ما يجرى - قام بإعداد كشف حساب بالفعل العربى، وكتب قائمة تحت ماذا فعلنا؟ أو ما هو دورنا؟ أو إلى أين تقودنا تحركاتنا الدبلوماسية، وباعتبارها الفعل الوحيد شفهيا المتاح حاليا؟!

☐ وكشف حساب من هذا النوع سوف يظهر عجبا.. أوله توجس وتردد وتناقض.. وآخره عجز عن الحركة والفعل!!

☐ وكشف حساب من هذا النوع يشير إلى الحقيقة التى تثير الدهشة والذهول بعد مرارة الإحباط.. وهى أن العرب يرجعون إلى الخلف.. تراجع على مستوى الفعل والقول والحركة، أو حتى على مستوى المشاعر القومية!!

☐ وكشف حساب من هذا النوع سوف ينتهى بالقول: إلى أين

تتجه هذه الأمة وقد فقدت القدرة على الحركة والفعل؟!

إن السؤال محير لأن الإجابة عليه بطريقة قاطعة تكاد تكون مستحيلة!!

إلى أين؟؟!!

ربما كانت القضية - ودون أن ندرى - هى.. إلى أين؟!

وقد تكون المشكلة أن كل شيء متوقع فى زمن الفراغ السياسى، وكل شيء مباح فى زمن الفراغ الفكرى.. وإذا كان الأديب العالمى "لافونتين" قد حدد أن أفضل مقياس لعقلية الإنسان أهمية الموضوعات التى يجادل فيها، فإن موضوعات الجدل بيننا لا تشير إلى "إفلاس فكر" ولكنها تحدد مأساة أن ندور ونلف فى دائرة مبهمة غير محددة الإشارات والتقاطعات.. فراغ!!

وعموما فى حسابات الهندسة الفراغية حقيقة رياضية تقول أن الأشياء التى حولنا يتألف كل منها من مجموعة غير منتهية من النقاط لا يمكن أن تقع على مستوى واحد.. أى أن الفراغ هو مجموعة غير منتهية من النقاط المبعثرة المشتتة..

وبالقياس على ثوابت الحقائق الرياضية فإن الفراغ السياسى لا يعنى حالة من فقر الفكر السياسى أو شلل يصيب الوعى والتفاعل.. وإنما العكس تماما.. هو مجموعة غير منتهية من الآراء.. والمواقف.. والأفكار.. والاتجاهات.. تدور كلها مبعثرة.. منفلتة فى فضاء غير محدود، أى أنها لا تقع على مستوى واحد يمكن بالتحاور والتنسيق أن تشكل رؤية سياسية شاملة ترسم خطوطها صورة متجانسة لهدف استراتيجى أو موقف قومى، باتفاق الرؤى واختلاف حركة التكتيك نحوها!!

وبالتأكيد هناك فرق بين اختلاف الآراء وتشتت الآراء.. بين الفكر القائم على تعدد الآراء والغنى بتلاحم المواقف واحتكاكها داخل حركة الفعل والتفاعل.. وبين الفكر المطحون بانفلات الرؤية والفعل والتفاعل!!

....

....

المشكلة.. أن ما يحدث داخل ساحتنا العربية تجرى وقائعه متسارعة - تبدو أحيانا أنها مدفوعة دفعا وبالقبول والرضا من مراكز تأثير خارجية - تلك الأحداث وما يتصل بها من قبل ومن بعد، جاء في زمن يخضع لأحكام حالة الفراغ السياسي العربي.. وفي مواجهة مجموعة غير منتهية من الآراء.. والمواقف.. والتحليلات.. والاتجاهات.. مبعثرة ومنفلتة يحتويها مناخ عربي من أبرز سماته حالة اكتئاب شعبي ترسمها سلبية الصمت حينا أو متابعة ما يحدث بفلسفة القضاء والقدر حينا آخر، حتى اتسعت مساحة اللامبالاة التي تفصل بين الشارع العربي بامتداده طولا وعرضا، وبين مؤسسات قمم الهرم السياسي!!

وأية محاولة لقراءة ما تجرى به الأحداث تنتهي بالتساؤل إلى أين؟! في ظل نظام عربي مسكون بالفوضى.. وحتى صناعة وصياغة القرارات بداخله تحيطها الظنون والشكوك!؟!

إلى أين.. ونحن لا ندرى كيف يجرى العالم العربي حساباته ويبنى التقديرات وهو على حافة الهاوية والأنفاس محتبسة ومتقطعة، وبعد أن سادت الحيرة واستحكم الارتباك؟! بعد أن تاهت في خضم التأثيرات الجارفة وتبعثرت أصول القضايا وجذورها وفروعها، ولحقت بها قيم ومبادئ وثوابت وأخلاقيات، واختلطت أشياء كثيرة، وضاعت الحدود بين الصديق والعدو؟!

وهذا ما حدث ويجرى.. وهي صورة لا داعي لوصفها بكثير من التفصيل والإسهاب لأنها واقع الحال الذي نراه ولا يحتاج إلى تذكير بأوضاعه وحقائقه!! ولكن ربما استطعنا أن نلخص مشاهد المأساة الملهاة بالقول أن هناك موقفا مؤسفا في العالم العربي.. وأننا أمام شيء جديد تماما.. أمام منطق مختلف تماما!!

وإلى أين ليست لها حدود، وإن كانت تقبل القسمة على العديد من

التوقعات!!

إلى أين.. ونحن لا نملك من أمر ثرواتنا شيئا.. وقد تركنا للآخرين حقوق الوصاية على أحوالنا ومقدراتنا، وهذا أدعى للذاكرة باسترجاع ما ورد في كتب التراث حين قال رجل من العرب: رأيت البارحة الجنة فى منامى، فرأيت جميع ما فيها من القصور. فقلت: لمن هذه؟ فقيل لى: للعرب. فقال له رجل من الموالى: أصعدت إلى الغرف؟ فقال: لا.. قال: تلك لنا..!! وهذه مجرد عينة عشوائية من بعض الملامح والقسمات التى فرضت التساؤلات إلى أين؟

إلى أين.. وقد اكتفينا بمتابعة ما يحدث على المسرح العربى من خطوات متتابعة فى إطار تنفيذ استراتيجية أمريكية فى غاية البساطة: حكومات عربية موالية لواشنطن ولا تقوى على الرفض أو المقاومة.. وثروات المنطقة تحت السيطرة وفى متناول اليد ولو بالسطو ودون منازع.. وضمان نهائى لأمن إسرائيل؟؟!

....

وهكذا وكأننا أمام لغز محير فى الموقف العربى المتجمد أمام ما حدث ويحدث وكأنه مقادير لا ترد، وفيما أظن أن الحقائق أمامنا كفيلة بكشف المستور ولكننا ـ غالبا ـ نهرب من مواجهتها والتعامل معها، بحثا عن تبريرات أخرى وتفسيرات وتحليلات!! تماما كما تقول الأساطير الإغريقية أن الحقيقة جاءت إلى الناس عارية تماما فاستداروا لا يحبون أن يروا ما يخدش الحياء، فعادت إليهم الحقيقة وقد تغطت فأقبلوا عليها.. لماذا.. لأنهم لا يحبون الصراحة الموجعة!!

وبالطبع لم يكن دور مصر بعيدا عن كتيبة التساؤلات التى تحيط بالواقع العربى..بل بدت تلك التساؤلات الحائرة والقلقة وفى جانب كبير منها وكأنها موجهة للبحث عن دور مصر فى مواجهة كل ما يجرى ويحدث!!

وفى هذه الموسوعة من الأحوال العربية كان المشهد العراقى ـ قبل وأثناء وبعد السطو المسلح الأنجلو أمريكى فى ربيع ٢٠٠٣ ـ شاهدا

على تشتت الفكر والفعل العربى.. شاهدا على أن هذه الأمة أصبحت تعيش جغرافيًا داخل منطقة نفوذ أمريكية، وأن هناك صورا متعددة من أشكال الوصاية والهيمنة!! وشاهد على أن الفكر السياسى العربى قد استقر فى السنوات الأخيرة على منهجية عمل تقول: ماذا تريد أمريكا حتى يفعل العرب ما تريد!؟!

وكانت صورة الحركة على الساحة العربية ـ قبل أيام من الغزو الأمريكى للعراق.. وخلال الحرب ـ تكشف عن مواقف ـ ربما كانت غير مسبوقة فى التاريخ العربى ـ وهى تساند صراحة دون خجل حركة العدوان الأمريكى المسلح.. وما حدث كان أشبه بتحالف حرب ضد دولة عربية.. وكانت القواعد الأمريكية الضخمة ومراكز للحرب الجوية فى دول عربية خليجية.. تستقبل طلائع الحشود الأمريكية لغزو العراق.. وانقسمت المواقف العربية الأخرى بين الرفض بالصمت.. أو اللامبالاة.. أو المناشدة "الخجولة" لضبط النفس وفى محاولة لإبراء الذمة!! أو التحذير من تداعيات العدوان على العراق.. وكان هناك فعلا مذموم عبرت عنه مواقف "التشفى" من دولة عربية ومن نظامها الحاكم!!

....

....

وصورة المناخ الذى جرى تحته الإعداد للغزو المسلح ـ قد رسمها الجنرال ويسلى كلارك فى كتابه (كسب الحروب الحديثة: العراق، والإرهاب، والإمبراطورية الأمريكية) والجنرال كلارك واحد من رجال المؤسسة العسكرية الأمريكية وعلى صلة وثيقة بوزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" ونافذ إلى ما وراء أسوارها.. والصورة التى يرسمها الجنرال كلارك فى كتابه مستندا إلى معلومات من مصادرها العليمة، توضح أن السياسة الأمريكية الحالية لتغيير الشرق الأوسط، والتى بدأت بالحرب ضد العراق، وتحت مسمى الحرب عل الإرهاب فى العالم، هى سياسة كانت مجهزة من قبل أن يقع الهجوم

الإرهابى فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١..

والأهداف قديمة لا تخص الولايات المتحدة كدولة، لكنها تعبر عن فكر أيديولوجى لجماعة المحافظين الجدد الذين يقودون السياسة الخارجية والعسكرية فى إدارة الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش، وهو الفكر الذى يتضمن أولا هيمنة أمريكية على العالم تسيطر على موارد الثروة (البترول) ومواقع النفوذ جغرافيا وسياسيا، تبدأ من السيطرة الإقليمية على الشرق الأوسط من خلال حرب على دولة تكون هى الحلقة الأضعف فى المنطقة ممثلة فى حكم يواجه معارضة من شعبه والعالم، ويتضمن ثانيا ارتباطا تنظيميا بإسرائيل والتمكين لها من هيمنة بالوكالة على المنطقة، بعد أن تكون صدمة الحرب فى العراق قد اثمرت فى خلق حالة من الخوف على أقل تقدير، أو الانكسار النفسى والسياسى على أكثر تقدير، مما يسهل إعادة رسم خريطة المنطقة ليكون لإسرائيل فيها وضع محورى فى علاقاتها المتغيرة!!

ويقول الجنرال كلارك أن التخطيط للحرب على العراق كان مختلفا عما اعتاده العسكريون بالنسبة لأى حرب يدخلونها، فالخطط الرئيسية العامة لهذه الحرب كانت قد وضعت قبل عشر سنوات، ثم تم التخطيط التفصيلى لها فى يناير ٢٠٠٢، فى واحد من سلسلة اجتماعات رأسها وزير الدفاع "السابق" رامسفيلد وحضرها الجنرال تومى فرانكس الذى تولى قيادة مسرح العمليات، وسبق ذلك بداية عملية التخطيط منذ نوفمبر ٢٠٠١ مع توجيه سياسى جاء من أعلى المستويات فى الحكومة.. وبعد أن ألقى الرئيس بوش خطابه "حالة الاتحاد" أمام الكونجرس فى يناير عام ٢٠٠٢، كانت السياسة الخاصة بالحرب قد تحددت، واصبحنا على مسار الحرب ضد العراق.. وعندما كنت فى البنتاجون فى شهر نوفمبر ٢٠٠١ قال لى واحد من هيئة كبار الضباط أننا مازلنا على الطريق نحو ضرب العراق، لكن هناك المزيد، وهو ما جرت مناقشته كجزء من خطة

لحملة تنفذ على مدى خمس سنوات، وتشمل سبع دول، تبدأ بالعراق، ثم سوريا، ثم لبنان، وليبيا وإيران والصومال والسودان!! وفى موجة الانفعال بإسقاط صدام حسين كانت الأحاديث فى واشنطن فى أبريل ٢٠٠٣ تتحدث عن الإمبراطورية الأمريكية، والفكرة ذاتها مضللة، وأن صورة القوات الأمريكية باعتبارها قلب الإمبراطورية الجديدة ـ قوة التحرير التى تجتاح الشرق الأوسط وتزيح أنظمة الحكم المناصرة للإرهاب، وتقيم ديمقراطيات على النمط الغربى ـ إنما هى رؤية مضمحلة!!

.....

وهذه هى الحقيقة.. وإن كانت ليست كاملة بالطبع!!

هناك تفاصيل ووقائع ومشاهد عديدة، وهناك نوايا معلنة تنطق بها الأقوال، أو غير معلنة تفصح عنها التصرفات.. المشهد العراقى ـ أمامنا ـ حافل بالمفاجآت والاحتمالات.. ولا أحد يفكر إلى أين؟ وبأية تكاليف؟ لأنها لحظة أصبح الهدف فيها تصفية حسابات، ومن قوى خارجية وداخلية.. وبأى ثمن!!

وفى مجمل الأحوال، فإن تصفية الحسابات تبدو وكأنها انتقام أسود من العراق نفسه.. من وطن يقف على منطقة احتكاك حضارى وإنسانى وسياسى وعسكرى.. يقف على منطقة تناقضات، وهناك حساسيات وحسابات قديمة فى هذه المنطقة.. وطن يقف على طرف فاصل فى العالم العربى له حساباته وتوازناته التاريخية والجغرافية.. وحتى يكون هذا (الوطن) صامدا كان لابد من وجود عراق عربى قومى قوى.. والحاصل أن كل هذه الأطراف ـ وأعوانها فى الداخل ـ وجدت الفرصة سانحة، وهى لا ترغب فى عراق قومى قوى!!

وأعتقد أن الاندفاع الأمريكى وفى اللحظة الأولى من الاحتلال ـ بتفكيك وتسريح الجيش العراقى ـ كان تعبيرا عشوائيا عن النوايا الأمريكية وبمراعاة أمن الوجود الإسرائيلى.. بالانتقام بإلغاء القوة

العراقية الأولى، وباعتبارها المحور الذى تدور حوله الحركة.. أو هكذا يتصورون!! وإذا كان للولايات المتحدة الأمريكية مصلحتها وأهدافها ومطامعها، وفى إطار مخطط النفوذ الأمريكى فى المنطقة.. فإن لدى إيران - أيضا - مواريث قديمة وحديثة، ثابتة وموجودة، وهناك مواريث قومية موجودة فى أعماق النفوس!! ولعبة الانتقام من وطن تدار تحت أعين وبمشاركة (أعوانهم) الذين يعتقدون أنهم رجال المرحلة الجديدة فى العراق (؟)

كل هذا ولا أحد يتحسب لمخاطر متاهات السنوات القادمة فى العراق؟!

وطن تطحن عظامه ممارسات الصراع على السلطة، والتعصب الطائفى والعرقى، وترجيح الحسابات الخاصة على العامة، ومناورات "المحاصصة" السياسية تحت مظلة وسطوة قوات الاحتلال!! وطن افتقد تماما عوامل وعناصر الأمن، وبمقدار فقدانه للتوازن الاجتماعى.. وأخشى أن أقول وبمقدار فقدانه للحلم الوطنى والقومى، وهو - كما يقولون - ليس مسألة ترف بالنسبة للشعوب والأمم والمجتمعات الكبيرة.. فالحلم الوطنى ليس قضية عابرة، وإنما هو محرك كبير لطاقة الدول..وهذا الوضع بالغ الخطورة وفى ظل أوضاع متردية.. ومع غياب العنصر القومى، وانهيار علاقات التعايش السلمى التاريخى، حيث يحاول كل فرد أن يبحث عن هوية، فإذا عجز عن العثور على هوية أكبر يلجأ إلى الهويات الصغرى لكى يجد نفسه فيها.. وفى الحالة العراقية كان الالتجاء إلى هويات صغرى - مذهبية أو عرقية أو طائفية - بالسلاح والدم لتحقيق مكاسب خاصة لقوى سياسية مختلفة!!

والمشاهد الحية على الأرض العراقية، اشد مدعاة للانقباض والكآبة، من أى مشهد خطر على خيال أى كاتب لروايات الرعب والكوابيس المفزعة.. وقد تجلت المأساة على بشاعتها، مع شلالات دم مهدور، وأكوام أشلاء آدمية ممزقة ومطحونة، وسيول حمم ملتهبة

تغذيها ميليشيات حرب طائفية، ونوازع شيطانية لتصفية حسابات، وهى تجرف فى طريقها كيان دولة كانت يوما ما هى العراق الأكثر اعتزازا بقوتها وعروبتها.. والآن راح كل شىء يتغير، وينقلب رأسا على عقب(!؟!)

. والمشاهد الحية على الأرض العراقية، تقول أن الإمبراطورية الأمريكية أصبحت مرهقة، وقد استنزفتها أعباء المواجهة.. أو أعباء الإرهاق الناشىء عن الاستنزاف.. وأن تكاليف الفشل كانت فادحة.. وهى تكاليف يكون حسابها بالدم والأعصاب والأموال والوقت.. والأرقام قبل أى شىء آخر حكم وحيد.. وقبل كل ذلك وبعده هناك حسابات " الهيبة " الأمريكية، وليس أصعب على القوة الأعظم من اهتزاز مهابتها، وباعتبار أن المهابة هى رمز قوتها السياسية(!؟!)

ولذلك.. يصبح التساؤل وفى صيغته الصحيحة: هل يمكن أن تنسحب الولايات المتحدة الأمريكية من العراق، وفقا لتوصيات أو خيارات أو رؤية لجنة بيكر ـ هاملتون؟! أم أن مطالب الانسحاب تتكسر حدتها أمام مطالب الإمبراطورية الأمريكية؟!!

والجواب: أن تقرير "مجموعة دراسة العراق" مجرد محاولة لإنقاذ الغريق دون النزول فى الماء.. أو مجرد محاولة لتعديل مسار الاتجاه الخطأ الذى تسير فيه الولايات المتحدة، ودون إغفال أوهام القوة والنصر للإمبراطورية الأمريكية!! والتقرير فى مجمله يخلط بين النوايا الطيبة والظنون والهواجس، على هامش الإرادة السياسية.. والأمر أكبر من النوايا الطيبة، وأعقد مما تهفو إليه الظنون والهواجس، خاصة وأن الغزو الأمريكى للعراق يدخل فى قلب الحركة والصراع على المنطقة، وفى مثل هذه القضايا، لا تتعلق الأمور بالنوايا ولكن بالإرادات!!

وإذا كانت كلمات التقرير مضللة أحيانا ولا تؤدى إلى المقصود منها.. ولكنها كشفت عن مأزق أمريكى حرج، تتصادم فيه الرغبة بالهروب من المستنقع العراقى، مع هواجس ومخاوف النتائج المترتبة

على الانسحاب والتى تهدد بتقييد حركة الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة!!

وهكذا.. تبقى الأجواء مشحونة بالتوتر، ومزدحمة بالشك، ومعرضة طول الوقت للمفاجآت.. وإن كان هناك فى العالم العربى - وسط هذا كله - من يحاول التنبؤ بما سيحدث.. وهناك من يترقب وينتظر النتائج.. وهناك أيضا من يريح نفسه، ويكتفى بتكرار السؤال: هل تنسحب قوات الاحتلال الأمريكى من العراق؟! أو هل تتم جدولة الخروج من الأزمة والورطة؟! وإذا كانت الخطط توضع على الأمر الواقع وحده، فكيف تتعامل واشنطن مع مطالب الانسحاب من العراق، وهى تخشى عواقب الانسحاب أو جدولة الانسحاب بإعلان فشل حرب من أجل الإمبراطورية الأمريكية.. حرب جرت أحداثها منذ البداية فى ظل ترتيبات أمريكية جديدة للمنطقة؟!!

وعموما.. فإن قصة أى أزمة (أزمة الإمبراطورية الأمريكية فى العراق) أو حدث (بحجم الانسحاب الأمريكى من العراق) يصعب فهمه ما لم يوضع داخل إطاره الصحيح..

☐ أولا: أن قرار سحب القوات الأمريكية من العراق أو إعادة انتشار القوات الأمريكية فى قواعد عسكرية محصنة خارج المدن العراقية الكبرى - لو حدث وأتصور أنه سوف يحدث - فإنه بالضرورة مرتبط بسيناريو أمريكى تحت الإعداد لشكل التطورات والأحداث والتحركات القادمة.. وهناك - بالطبع - تصورات استراتيجية للوضع والنفوذ الأمريكى فى العراق بعد انسحاب القوات تدريجيا!!

☐ ثانيا: الإدارة الأمريكية، ودول الجوار العربى، تتحسب جيدا للدور الإيرانى المرتقب فى العراق ومن بوابة "الشيعة".. وأن تطلعات إيران لدورها الإقليمى البارز والمؤثر فى المنطقة، ترتكز على المحور العراقى.. وأن انسحاب القوات الأمريكية سوف يفتح الأبواب على مصراعيها أمام الدعم الإيرانى المباشر واللامحدود للأغلبية

الشيعية ـ ٦١٪ ـ ثم تثبيت دور إيران الفاعل وبما يتيح لها المشاركة الفعلية فى إعادة هيكلة بقايا دولة ـ العراق ـ ومما يهدد باشتعال نيران التصادم على المستوى الاجتماعى، ما بين شيعة وسنة على الصعيد المذهبى، وعرب وأكراد وتركمان وآشوريين على الصعيد العرقى، ومسلمين ومسيحيين على الصعيد الدينى!!

ومن المؤسف حقا أن يتم النظر من قبل البعض فى العالم العربى تلميحا أو تصريحا إلى الأغلبيَة الشيعية فى العراق من المنظور الأمريكى، الذى يصدر مفهوما مغلوطا لتلك الأغلبية باعتبارها طابورا خامسا لإيران.. وعلى أى الأحوال، إذا كان هذا التصور المغلوط يصب فى مصلحة الولايات المتحدة، وبالتالى من حقها تعميمه، فإنه يصب فى غير المصلحة العربية، فالترويج بأن الأغلبية الشيعية هى طابور خامس لإيران ينفى عن حوالى ٦١ بالمائة من العراقيين عروبتهم ووطنيتهم، كما أنه وفى الوقت نفسه يكشف عن عدم وعى بطبيعة الفكر الشيعى لدى شيعة العراق، واختلافه عن الفكر السائد لدى شيعة إيران، وهذه قضية غاية فى الأهمية.. ولقد برزت الخلافات بين الشيعة العراقيين والإيرانيين أثناء الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) وانتفاضة الشيعة فى جنوبى العراق عام ١٩٩١.. وأثناء الحرب مع إيران قاتل الشيعة العراقيون ضد أبناء مذهبهم الإيرانيين، والمعروف أن شيعة العراق كانوا يشكلون أغلبية القوات البرية العراقية، وقد كشف هذا الأمر أن ولاء شيعة العراق للدولة العراقية يتجاوز الانتماء المذهبى والسخط من نظام حزب البعث الذى يسيطر عليه السنة.. وكانت انتفاضة ١٩٩١ تلقائية وغير منظمة وتفتقد لقائد دينى بارز يلهمها ويوجهها، ولكنها لم تكن على غرار الثورة الإسلامية أو على المبادئ التى نادى بها "الخومينى".. فضلا عن أن مفهوم "ولاية الفقيه" الذى يمسك بزمام السلطتين الدينية والسياسية المطلقة فى إيران لم يكتسب أرضا بين الأغلبية الواسعة من الشيعة العراقيين بمن فيهم أعضاء حزب الدعوة

الإسلامى!!

والحديث عن "شيعة العراق" بصفة العموم يسقط من حساباته طبيعة تماسك الطائفة الشيعية نفسها، وأن هناك تنويعات عديدة داخل هذه الطائفة بدءا من الظاهرة الشيعية الغارقة فى البداوة، مرورا بالظاهرة الشيعية الريفية، وانتهاء بالظاهرة الشيعية المدنية، وهناك اختلاف كبير فى طبيعة الأفكار السائدة فى هذه المستويات الثلاثة بشكل لا يمكن الحديث معه عن إطار مرجعى واحد للجميع على المستوى الفكرى.. وفى السياق نفسه، وعلى الصعيد التنظيمى لا ينضوى شيعة العراق فى تنظيم واحد يمكن ربطه بجهة ما، بل هناك أكثر من تنظيم، وبين هذه التنظيمات الشيعية خلافات وصلت إلى قتل السيد عبدالمجيد الخونى، وحصار آية الله السيستانى فى وقت من الأوقات من قبل جماعة مقتضى الصدر!! أما عن قرب فصيل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية - وهو ليس أهم فصائل الشيعة العراقيين - من إيران، والذى على ضوئه يتصور كثيرون هذه الرابطة بين إيران وشيعة العراق، فقد فرضته معطيات سياسية لا مذهبية، حيث احتضنت طهران هذه المنظمة ردا على احتضان بغداد لمنظمة مجاهدى خلق، وكان كلا التنظيمين ليس إلا ورقة للمناورة فى يد العراق أو إيران فى مواجهة الآخر!!

□ ثالثا: عناصر القوى السياسية فى العراق، والتى تدير السلطة (المفروض أنها الحاكمة) وتحت مظلة وعناية سلطة الاحتلال.. هذه العناصر فى مأزق حرج تتصادم فيه المصالح الضيقة، مع المصالح الطائفية والمذهبية، ومع مراعاة عدم الاحتكاك مع مصالح ورؤية سلطات الاحتلال الأمريكى.. وهى تحاول فى نفس الوقت أن تثبت للإدارة الأمريكية بأنها جديرة بتحمل مسئولية إدارة العملية السياسية فى العراق!! ومع نتائج الفشل السياسى والأمنى، لم يكن أمامها إلا الاعتراف بتصاعد العنف والذى قد يقود إلى حرب أهلية تمتد آثار تداعياتها إلى دول الجوار، وأنه من مصلحة الدول العربية

جميعا أن توقف التدهور الحادث فى العراق!! وهناك من يطالب ببقاء القوات الأمريكية ويزعم عدم انفلات الاضطراب الأمنى إلى مذابح دموية قد تؤدى إلى تقسيم العراق.. وتراوحت اتهامات دعم ومساندة "أعمال العنف" بين إيران ودول عربية مجاورة.. وكل رأى يرتبط بانتماء صاحبه الطائفى أو المذهبى أو العرقى!! وكشف الرئيس العراقى جلال طالبانى عن رغبته فى وجود عسكرى أمريكى طويل الأمد فى العراق، وأن العرب السنة - من وجهة نظره - يؤيدون التواجد العسكرى الأمريكى لأنهم يعتقدون حاليا أن الخطر الرئيسى يأتى من إيران!!

والشاهد.. أن الكل يدور ويلف حول حقيقة فرضتها عملية السطو المسلح الأمريكى على العراق.. حقيقة التنكيل بالعراق، وتزايد عمليات الصراع الطائفى وتصفية الحسابات، والتى يجب أن تنتهى - حسب تقرير أعده باحثون إسرائيليون بمركز هرتزليا - بتقسيم العراق، وباعتبار أن ذلك أفضل وسيلة لخدمة الأهداف الأمريكية والإسرائيلية فى المنطقة، وأنه فى حال لم يسفر الاحتلال الأمريكى للعراق عن تقسيم هذا البلد فإنه يمكن اعتبار الحرب الأمريكية فاشلة من أساسها ولم تحقق أهدافها، ولذلك يتوجب القضاء على الوحدة الجغرافية للعراق وتسهيل إقامة دويلات طائفية، وإضعاف الوجود السنى فى العراق وضرب حركات المقاومة السنية!!

وهكذا يفكرون..

وفى هذه الأجواء.. نحن نركز على جزء من الحقيقة ونترك الحقيقة كاملة!!

وأغلب الظن.. أن المشهد العراقى الراهن حافل بعشرات الأسباب التى تجعلنا نقيم للمجهول ألف حساب وحساب.. وأن تدخل أى دولة عربية فى دوامة الطرح الأمريكى للأحداث، هو دخول إلى قاع البركان.. وأتصور أن نقطة البداية الصحيحة لأى تدخل عربى هى إعادة الحسابات مع المقاومة العراقية، والتى لا تجهل تضاريس أرض

الواقع الذى تجرى حركتها الفاعلة والمؤثرة عليه، وهى بالضرورة مقدرة لما تفعله، عارفة بمسئولياته، وإلا فلم يكن هناك مبرر لهذه التضحيات..

وقبل كل ذلك وبعده.. فإن الإدارة الأمريكية تدرك جيدا حقيقة من يملك القوة والحركة الفاعلة فى العراق (المقاومة العراقية) وتحاول تشويه صورتها بالعمليات الدموية التى تديرها عناصر مشكوك فى انتماءاتها وتوجهاتها وأهدافها!! أو أن تنسب عمليات المقاومة - باعتبارها إرهابا - إلى تدخلات خارجية لها أطماع إقليمية أو مصالح مذهبية، أو بدواعى دينية متطرفة!!

ورغم كل ما يجرى داخل وحول العراق.. فإن المقاومة تدير عملياتها بعيدا عن صخب صراعات المصالح والكراسى أو فتاوى البحث عن حل للأزمة.. وتبقى الكلمة الأخيرة لها.. وهكذا يقول التاريخ.. والذين لا يقرأون التاريخ جيدا محكوم عليهم أن يظلوا أطفالا طول عمرهم!!

وهذه الحقائق لم تكن بعيدة عن فكر الإدارة الأمريكية، وفجرت هواجس القلق لدى الرئيس الأمريكى "بوش" وقد اثار هذه القضية للمرة الأولى بهذا الوضوح وهذه الصراحة، خلال لقاء مغلق عقده مع عدد من زعماء الكونجرس من أعضاء الحزب الجمهورى، وعدد آخر من كبار المقربين من أركان إدارته!!وكانت كلماته تحمل تحذيرا من أن تستطيع القوى الأخرى (المقاومة العراقية) أن تعلن التعادل مع أمريكا، أو تضطرها إلى سحب قواتها من العراق، ولو حدث هذا فإن الدور الأمريكى سوف يضعف فى الشرق الأوسط، بل فى الساحة الدولية، وسوف تواجه المصالح الأمريكية الحيوية والاستراتيجية ضررا بالغا، وستتعرض منطقة الخليج العربى والدول المجاورة لها لهزات كبيرة تهدد بقلب موازين القوى فى المنطقة!؟!

وأتصور أن المشكلة الأبرز التى تحاصر العراق هى حجم التلوث السياسى والطائفى الذى يخيم على وطن "مفخخ" ويعيش مرحلة

ضياع كله مسلح بعد أن انفك التماسك بين مساحات عريضة، وضاع المعنى، واختلطت أوراق التفسير الصحيح لما يجرى.. وطن انحدر بالفعل إلى هاوية المجهول.. إلى قاع البركان.. ولن تستطيع لا قوة النار ولا قوة الأفكار أن تحكم سيطرتها، أو أن تفرض ما تريد!!

وإلى جانب ذلك كله..

ومع هذا الاندفاع نحو المجهول.. كانت التساؤلات عن "دور مصر" وسط دوامات من أمواج متلاطمة تثيرها مطامع ومصالح إقليمية ودولية.. مطامع وأهداف أمريكية لا تقبل التراجع.. ومواقف عربية لا تستطيع الإخلال بمصالح ومطالب "الصديق الأمريكى" ولا تقوى على الرفض أو حتى التردد وبعد أن ارتبطت المصائر بعقود اتفاقيات أمنية وامتيازات عسكرية وهى ترى فى الولايات المتحدة الأمريكية السند والمدد الوحيد!! وإلى جانب دوامة التلوث السياسى والطائفى داخل العراق.. هناك صدام وصراعات المصالح "الضيقة" المذهبية والعرقية.. واختلطت أشياء كثيرة.. الخاص مع العام.. وأصول القضايا مع فروعها.. وأطل شبح بدا مرعبا أمام الجميع (الحرب الأهلية الطائفية) تدفع مقدماتها بالجثث مجهولة الهوية على قارعة الطرق.. وبدا واضحا أن هناك سياقا عاما يصل بين الحوادث والتطورات داخل العراق، وما بين المطامح والمطامع.. وأن الحوادث والتطورات مجرد مشاهد ساخنة أو "موجات همجية" فى سلسلة الصراع على المنطقة وفيها!!

وكان واضحا منذ البداية أن حركة الدور المصرى - الجهد السياسى والدبلوماسى - يتحسب جيدا لتداعيات الجيوش الزاحفة على الإقليم العربى، وإلى جانب الأفكار الزاحفة قبل الجيوش وبعدها.. وأتصور أن مصر وفى تقديرها للموقف كانت تراعى ظروف أمنها أولا فى أى تحرك، وهى تدرك مطامع قوة متحفزة للسيادة على المنطقة، والسيطرة على مصائر ومقادير، وأن جهد الأمة وطاقاتها أصبح مشتتا، وأن المزاج السائد غير مستعد لمراجعة

حسابات ما يحدث ويجرى.. وفى هذا الجو المفعم بخيبة الأمل كانت كل الأنظار - تقريبا - تحاول أن تهرب مما حولها!!

والحاصل أن ساحة الحركة أمام الدور المصرى كانت محفوفة فى كثير من جوانبها بنوع من ذلك "الهروب العربى" وفى منطقة دخلت فى نطاق النفوذ الأمريكى.. منطقة مزدحمة بالشك ومعرضة طول الوقت للمفاجآت.. وقد اتسعت الشقوق والتصدعات بين المواقف التى بدت صورة معظمها "سيريالية" أقرب للعبثية والعشوائية وأصبح سد الفجوات بينها جهدا ضائعا.. وكأن الأمر الواقع أصبح واقعا وخاضعا لمركبات الاستعلاء التى تحكم تصرفات دولة عظمى (أمريكا)

وهكذا.. كانت رؤية البعض أن الجهد السياسى والدبلوماسى المصرى لا يختلف عن جهد أى دولة عربية أخرى رغم أن المسئوليات الكبرى ملقاة على عاتق الدولة القائد ودورها التاريخى فى المنطقة وما حولها..

□□□□

تصورات حول دور مصر

"إن التاريخ في عجلة من أمره
للعودة للوضع الطبيعي.."
فرانسوا ميتران
الرئيس الفرنسي الراحل

ومهما كان من أمر الأسباب التى عددتها - أو أسباب أخرى غيرها - كان لها تأثيرها على حركة الدور المصرى، وأثقلت عليه.. فإنه لم يكن غريبا أو مستغربا بعد ذلك أن يصبح التساؤل حائرا وقلقا (إذا افترضنا حسن النوايا) أو تساؤل بدوافع التشكيك فى كل شىء (إذا افترضنا سوء النوايا) حول حركة الدور المصرى أو دور الدولة القائد فى المنطقة العربية وفى محيطها الإقليمى؟!

والحديث عن دور مصر - فى السنوات القليلة الماضية ولا يزال جاريا - يطرح تصورات حول تآكل أو تراجع أو غياب أو تعطيل (الدور) ولكن قد تكون هذه التصورات مقبولة وبالمنطق المجرد إذا كانت تتحدث عن تغيير فى حركة واتجاه الدور المصرى، أو أنه - مثلا - لم يكن فاعلا ومؤثرا كما كان متوقعا وبما يتناسب مع حجم وثقل والميراث التاريخى لهذا الدور. أما تصور الغياب الكامل أو التآكل أو التراجع، فهو يوازى تماما تصور غياب أو تراجع مصر عن جغرافية موقعها وعن تاريخها وعن تراثها الإنسانى والحضارى، وعن ضرورات أمنها ومقتضيات مصلحتها..

وذلك غير ممكن، وغير محتمل..

وأجد فى كل ما يقال تجاهلا للواقع.. وتجاهل للملابسات والمضاعفات عربيا ودوليا والتى أثقلت على حركة الدور. وتجاهل للتأثيرات المحتملة لحركة تفاعل الأزمات التى تزاحمت وتصادمت فى المنطقة خلال السنوات الأخيرة.. والتأثيرات المحتملة لحركة الصراعات الدولية، سياسية واقتصادية.. وتجاهل لحقائق ترسم صورة عالم عربى أصبح فى حالة خصام مع مبادئ وقيم وثوابت، وكان مشتبكا مع نفسه فى نزاعات وحروب.. عالم عربى يعيش حالة استباحة كاملة لمصائره، وأصبح فريسة مكشوفة للعدوان، والأمثلة كثيرا وآخرها الغزو الأنجلو أمريكى للعراق.. عالم عربى تحكمه مجموعة من العقد إلى جانب مؤثرات تهب عليه من خارجه، فضلا عن حجم النفوذ الأجنبى والاختراق الأجنبى لحياة الأمة وقد

زاد، بل ولم يعد الاعتماد على الأجنبى يدارى نفسه ولكنه يعلن عن نفسه مختالا فخورا..

وكل هذا - وغيره الكثير - قد أدى إلى نوع من التشرذم، وإنكار الواقع وضروراته، والاستهانة بالمستقبل واحتمالاته..

وربما يقال - والقول صحيح - أن نفس الأسباب والمؤثرات التى أثقلت على حركة الدور المصرى، وحاولت تعطيله، هى نفس الدواعى التى كان يتحتم من أجلها أن يتحمل الدور المصرى مسئوليته التاريخية تجاهها، وأن تكون حركته فاعلة ومؤثرة للتعامل مع هذه التطورات والأزمات والتعقيدات والاعتبارات المتشابكة والمتناقضة؟!

وأصحاب هذه الرؤية يقللون من تأثير أحوال منطقة سقطت فى الفوضى، ولم تصل بعد إلى صيغة للتعايش فى داخلها بين أقطارها وبعد أن أصبحت وحدتنا القومية ممزقة.. وقد تكون هناك أخطاء تقدير حسابات فى الفكر والفعل السياسى المصرى، ولكن مهما كانت الأخطاء فى الحساب فإن مصر حاولت قدر ما استطاعت.. وإذا كانت هناك مؤثرات طارئة وعارضة على حركة الدور المصرى، فإن هذه المؤثرات قد تستطيع أحيانا أو بعض الوقت أن تجعل حركة الدور المصرى بطيئة، ولكن لا تستطيع يقينا إلغاء حقائق دور مصر التاريخى وهى فى مجملها من ثوابت أحكام الجغرافيا والتاريخ - وبصرف النظر عن اعتبارات حيوية أخرى - والتى جعلاها قوة إقليمية مؤثرة فى ما حولها، قوة أكبر من مجرد خطوط حدودها..

....

....

من الخطأ أن نتعامل مع دور مصر برؤية مسطحة، لأن الأمر يرتبط بالتفاعلات التاريخية والحضارية، والتى لا يمكن إغفالها!! ومن الخطأ أن تكون الرؤية قاصرة فقط على جانب واحد، لأن

معنى ومفهوم الدور المصرى أكبر وأشمل - سياسيا وثقافيا واجتماعيا وعسكريا - ومن التأثير فى تشكيل الوجدان العربى إلى ضرورات الأمن العربى وضرورات المصلحة القومية، ومع مراعاة أن القدرات الاقتصادية لها تأثير على الدور الإقليمى.. وأن الدور فى العلاقات الدولية أعمق وأكثر تعقيدا ويقوم على أجندة محلية ووطنية يتم التحرك من خلالها..

....

والذين يطرحون تصوراتهم ويتحدثون عن دور مصر، لا يعرفون ماذا يقصدون؟ هل دور مصر قاصرا على دور القيادة السياسية؟ وهل دور مصر تتم صناعته داخل المطبخ السياسى لصناعة القرارات؟!! وهل دور مصر يمتلكه فرد أو تمتلكه مؤسسة لها حقوق التأليف والإبداع؟!! وهل الدور مجرد جهد سياسى لدولة ما فى مرحلة زمنية أو لحظة عابرة تفرضها أحداث أو أزمات طارئة؟!! إنهم يخلطون بين كل هذه التصورات "العشوائية" لمعنى ومفهوم الدور!! وربما لا يدركون أن التاريخ هو الذى يملى على دولة ما دورها.. وأن دور مصر قدر تاريخى لعبقرية المكان، وأن الأقدار التاريخية للشعوب هى نتائج مباشرة للجغرافيا والتاريخ منذ الأبد إلى الأزل..

إنهم يخلطون وبقصد التشكيك فى دور مصر.. ويصدرون أحكاما برؤية زمنية ضيقة وبالقياس على وقائع محددة أو بقايا أزمات فى لحظة بعينها!! وبهذه الرؤية الضيقة يشيد تقرير مركز دراسات أمريكى - مؤسسة "ستراتفور" للاستخبارات والدراسات السياسية فى شهر يونيو ٢٠٠٧ إلى أن دور مصر أصبح فى "المؤخرة" مع تراجع مكانة مصر كزعيمة للمنطقة لصالح المملكة السعودية!! ويقول التقرير:

"عندما يعيد التاريخ نفسه فى الشرق الأوسط فإن ذلك غالبا ما يتم بشكل كئيب وساخر، خذ عندك مصر كمثال، بعد ٤٠ عاما من

هزيمتها النكراء أمام إسرائيل فى حرب الخامس من يونية عام ١٩٦٧ تجد أن الدولة التى تزعمت العالم العربى فقدت مكانتها كقطب أوحد.. وخلال الشهور الأخيرة، تراجع الدور المصرى مرة بعد مرة فى التأثير مقابل تقدم السعودية عليها سواء بالنسبة للصراع الإسرائيلى الفلسطينى،أو الأزمة اللبنانية أو العلاقات العربية الإيرانية، حيث لم يكن لدى القاهرة المجال للتفوق على السعودية المنافس الأقوى لها على القيادة العربية، أصبحت السعودية ـ لا مصر ـ هى المضيف للفصائل الفلسطينية المتحاربة، كان الدبلوماسيون السعوديون هم من توجهوا إلى لبنان الصيف الماضى لبذل جهود الوساطة ووقف النزاع بين إسرائيل وحزب الله، وهم من واصلوا هذه الجهود خلال المنافسة السياسية فى لبنان حتى اليوم، كانت الرياض هى من مثل العالم العربى فى المفاوضات الإيرانية الأمريكية فى العراق رغم تحفظ السعوديين على أى اتفاق إيرانى أمريكى بشأن مستقبل العراق، لكن عندما ظهر أن واشنطن وطهران سيجعلان المفاوضات علنية، سارعت الرياض بالتحرك والمشاركة فى المحادثات، وأصبحت الطرف الذى يؤكد مصالح سنة العراق على طاولة المفاوضات، ومازالت مصر تدعو بعض القادة إلى شرم الشيخ، لكن لا يتساوى مجرد الاستضافة بصياغة جدول الأعمال، وتظل مصر تحظى بفاعلية كبيرة فى الشرق الأوسط، ولا يزال العديد من الدول العربية (ومن بينها الأردن ولبنان والشعب الفلسطينى) ينظر إليها باعتبارها أخا أكبر، رغم ذلك فإنه فى غضون الأشهر الست المقبلة ستترك مصر قيادة المنطقة إلى السعودية، لأنها فى الحقيقة لا تملك سوى فعل ذلك، وهو مما سينعكس على المنطقة بكاملها، حيث ستتجه دول الخليج والمشرق وشمال أفريقيا إلى الرياض، كما ستسعى الدول المتنازعة مع السعودية (مثل قطر واليمن) إلى تحسين علاقاتها معها.. ودخلت مصر فى مرحلة عدم الثقة السياسية!!"..

والتقرير كان متزامنا - تقريبا - مع حملة تشكيك أمريكية فى الدور المصرى، وتدفع باتجاه خلق منافسة، أو الإيحاء بوجود صراع أدوار بين مصر والسعودية!!وإلى جانب التوقعات والتحليلات التى نشرتها بعض الصحف الأمريكية، قالت وكالة "يونايتد برس" الأمريكية - ٢٠٠٧/٤/١٢ إن مصر مستعدة لقبول ودعم الدور القيادى للملكة العربية السعودية فى الشرق الأوسط، وأكدت الوكالة فى تحليلها الإخبارى، نقلا عن خبير أمنى سعودى وطيد الصلة بالعائلة المالكة السعودية، أن الملك عبدالله يعتبر نفسه جمال عبدالناصر الجديد، ولكن دون العامل الاشتراكى، وأنه يجب أن يأخذ مكانه على رأس الخريطة العربية.. ونبه التقرير، الذى أعده المحرر الدولى بالوكالة كلود سالهونى، إلى قول المسئول السعودى، منذ وفاة الرئيس جمال عبدالناصر عام ١٩٧٠، والعالم العربى دون قائد قوى، قادر على توحيد العرب.. وأن الملك يرى فى نفسه دورا كبديل محتمل لجمال عبدالناصر.. ونقل التقرير عن السفير نبيل فهمى، سفير مصر وقتئذ فى واشنطن، تعليقه: "لا أعرف ما إذا كان الملك عبدالله يرى نفسه مثل عبدالناصر أم لا، ولكن إن كان فلا مشكلة فى ذلك معنا، إن الشرق الأوسط لديه الكثير من المشاكل، وكلما كان لدينا عدد من الزعماء الأقوياء كان ذلك أفضل..

ونفس الرؤية الأمريكية طرحها السفير الأمريكى الأسبق فى القاهرة "دانيال كيرتزر" والذى يعمل حاليا رئيسا لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة برينستون الأمريكية، واصفا النظام السياسى المصرى بـ "المتصلب".. وقال - فى مقال لصحيفة "ديلى ستارز" اللبنانية التى تصدر بالتعاون مع صحيفة "الهيرالد تريبيون" فى ١٥/ ٧/ ٢٠٠٧ أن الدبلوماسية السعودية تسعى بجدية وتعمل على احتلال مكانة مصر فى مركز صناعة القرارات العربية المعتدلة!!

....

والخلط واضح بين الموقف السياسى، وبين الدور بمفهومه الشامل والأوسع.. بين جهد سياسى ودبلوماسى فى لحظة مشحونة باعتبارات متشابكة أو نزاعات طارئة أو أزمة عابرة، وبين حركة الدور بتأثيره وامتداد حركته التاريخية.. فالموقف السياسى تخلقه أو تفرضه ظروف واعتبارات خاصة، والدور تفرضه أحكام الجغرافيا والتاريخ.. الموقف حركة فى لحظة من عمر التاريخ، والدور حركته تاريخية متواصلة.. ثم أن الموقف يبرز حين تتوافر له أسباب أو دوافع محلية وفى حدود مصلحة " قطرية " قد ترتبط بتوجيهات أو مصلحة خارجية، أما الدور فتحكمه الدواعى التاريخية بعيدة المدى

الموقف حقيقة سياسية.. والدور حقيقة تاريخية..

والموقف رهن سياسة الدولة (مصلحة خاصة) والدور قدر تاريخى (مصلحة عامة) والموقف قد يتراجع ويتبدل ويختلف وفقا لتطورات الأحداث والظروف الراهنة المحيطة به.. ولكن الدور قد تتباطأ حركته ولكن لا يختلف أو يتراجع بالغياب أو التآكل، لأن هذا معناه تراجع الجغرافيا أو غيابها عن موقعها، أو مثلا تآكل سنوات التاريخ وأحكامه!!

....

وليس وحدهم الذين يخلطون.. ومع تعدد التصورات التى تدور حول التقويض المضطرد لدور مصر القيادى الإقليمى التقليدى من خلال تنامى نشاط السياسة الخارجية السعودية، أو أن مصر فقدت دورها الريادى فى المنطقة وفقدت الكثير من وزنها السياسى لأسباب خارجية أكبر من قدرة مصر على مواجهتها، ولأسباب داخلية - وتلك رؤية أخرى - وعلى حدود التصورات أو الانطباعات أو تقييم دور مصر فى حقبة مهمة من تاريخ مصر والأمة العربية!!

أما وجهة النظر الرسمية ـ وعبر عنها وزير الخارجية أحمد أبو الغيط ـ بالقول فى برنامج "منتهى السياسة" على قناة المحور (١٢/ ٢٠٠٧/٨) بأن الدور اختلف ولم يندثر أو يتراجع بسبب تغير الظروف الدولية ولا يمكن أن نغامر بإمكانات وموارد مصر فى جهود مصيرها الفشل، ومن يتحدث عن تراجع الدور المصرى يريد وضعنا فى المواجهة.. مصر تركت ١٠ آلاف شهيد فى اليمن وأرسلت العديد من الوحدات المدرعة إلى بغداد عام ٦٤، ومنذ ٦٧ ونحن نخوض معارك حياة أو موت، وبالتالى كانت الظروف تفرض علينا أن يكون دورنا كبيرا، أما الآن وفى ظل السلام مع إسرائيل والتغير فى منظومة العلاقات الدولية، فمن الطبيعى أن يختلف الدور، ولكنه لم يتراجع أو يندثر، وأن معالجة مشاكل المنطقة تتطلب قدرا كبيرا من الوعى والفهم الصحيح لأسبابها، والحرص على توخى الحكمة وإدراك الحقائق كاملة قبل اتخاذ أى قرار، حتى يمكن توجيه الأحداث بما يخدم مصالح المنطقة وشعوبها..

وهناك ظاهرة ملفتة للنظر.. أن الحديث عن الدور كان قاصرا على النشاط السياسى، وهو مجرد عنصر من عناصر حركة الدور وفاعليته وتأثيره للدولة القائد المعترف بها فى المنطقة العربية.

ولعلنا نتفق على أن هناك فرقا بين مفهوم الدور المصرى وبين حركة النشاط السياسى والجهد الدبلوماسى..

ولعلنا نتفق على أن هذا الدور كان مستهدفا من قوى السيطرة الأجنبية ـ فى كل زمان ـ وهذا ما حاولته بريطانيا وجربته الولايات المتحدة، وحلمت به إسرائيل.. وكان هدف القوى الطامعة إحكام القبضة على مصر بعزل دورها عن محيطه العربى والإقليمى.. ويبدو واضحا الهدف الأمريكى ـ تحديدا ـ بتقنين حركة الدولة القائد فى المنطقة العربية، وفى إطار يبدو وكأنه متفقا عليه ويكتسب شرعية الرضا والقبول!!

ولعلنا نتفق - أيضا - على أن حركة الدور على مسار التاريخ تعتريها فترات انكماش وترهل، وهى حقب زمنية لا يغيب خلالها أو يتجمد فعل وحركة الدور وتأثيره، ولكن قد تتعطل بعض مسئولياته القومية داخل حدود أمته، أو امتداد الحركة على الصعيد الإقليمى، وحين تعترض الطريق ظروف طارئة وغالبة!!

....

....

وإذا كانت هناك تصورات قد تجاوزت فى تشخيصها لحالة الدور المصرى إلى درجة التنبؤ بتآكل الدور وتحلل قدرات الدولة القائد بعد أن تراجع دورها إلى "المؤخرة".. فإن هموم الأمة والأزمات الضاغطة عليها من كل نوع.. على جسدها وعلى هويتها.. هى التى دفعت كثيرين من مفكريها إلى طرح التساؤلات الحائرة والقلقة عن الدور المصرى وعن مسئوليات الدولة القائد فى المنطقة.. وتدفعهم إلى تشخيص الأحوال وأسبابها..

وعلى سبيل المثال فإن الأسباب لدى مفكر عربى مثل الدكتور جلال أمين أن الدولة القائد لم تعد دولة قوية إزاء الأجنبى، وعلى الأخص إزاء الولايات المتحدة، فيصفونها بالدولة التابعة.. وهو يقول: كان لابد إذن أن تدفع مصر ثمنا أعلى مما دفعه غيرها نتيجة هبوب رياح العولمة ابتداء من السبعينيات، فزلزلت قوائم الدولة المصرية حتى أفقدتها توازنها وقد ضاعف من أثر العولمة فى إضعاف الدولة المصرية ثلاثة عوامل مهمة:

الأول هزيمة الدولة المصرية فى ١٩٦٧، حيث نتج عن الاعتداء الإسرائيلى احتلال سيناء وما ترتب عليه من آثار اقتصادية، وضعف سياسى، وفقدان الدولة الناصرية ما كانت تتمتع به من ولاء غالبية المصريين..

والثانى: شخصية الرئيس الجديد الذى حل محل عبدالناصر فى ١٩٧٠، إذا اجتمعت فيه عدة صفات ساعدت على تفكيك الدولة

المصرية، ومن ناحية لم يكن أنور السادات يشيع الرهبة فى الناس مثلما كان يشيعها سلفه، وهو بطبعه مفتون بكل ما هو غربى، ومن ثم لديه استعداد طبيعى لقبول فتح الأبواب أمام الأجانب، وإزالة أى عقبة قائمة فى وجوههم، ولو على حساب القواعد المستقرة..

والثالث: أن موجة العولمة الجديدة اقترنت بحدوث تضخم جامح كانت العولمة نفسها أحد أسبابه.. وقد اجتمعت هذه العوامل كلها، مع رياح العولمة، لتحدث تأثيرها فى إضعاف الدولة الذى بدأ المصريون يشعرون به ويستغربونه منذ أوائل السبعينيات!!

ومن وجهة نظر الدكتور جلال أمين أنه من الصعب تصور أن تظل الدولة المصرية بعد ١٩٦٧ بالقوة نفسها التى كانت قبلها.. نعم، لقد حدثت حرب ١٩٧٣، وتم عبور عسكرى ناجح إلى سيناء، ولكن هذا الإنجاز العسكرى لم يقترن بإنجاز سياسى مساو له، بل فرض على مصر مختلف الشروط فى الاتفاقيات المتتالية مع إسرائيل وبمناسبة هذه الاتفاقيات، ابتداء من اتفاقيات فك الاشتباك فى ١٩٧٥، إلى اتفاقية السلام فى ١٩٧٩، ساهمت هذه الشروط بلا شك فى إضعاف الدولة المصرية.. كيف حدث هذا بالضبط؟!وكان دخول الولايات المتحدة طرفا فى اتفاقيات تحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلى قد دشن باحتفال عظيم بزيارة الرئيس نيكسون مصر فى ١٩٧٤ وكأنه إمبراطور رومانى جاء ليتفقد هذه الدرة الثمينة التى أضيفت مؤخرا إلى ممتلكاته، ولكن هذا الإمبراطور طلب من أجل أن يحل مشكلة سيناء، أشياء كثيرة من إعادة تسليح الجيش المصرى بسلاح أمريكى إلى فتح أبواب الاقتصاد المصرى أمام رؤوس الأموال والسلع الأمريكية والغربية بوجه عام، وابتعاد مصر تدريجيا عن منطقتها العربية، فضلا - بالطبع - عن تغيير طبيعة العلاقة بين مصر وإسرائيل.. ومنذ ذلك الوقت، أى منذ منتصف السبعينيات، ظهرت رخاوة الدولة المصرية إزاء الإرادة الأمريكية، وإزاء الإرادة الإسرائيلية وإزاء إرادة رأس

المال الأجنبى كما أدى أيضـا إلى رخاوة الدولة المصرية إزاء الدول العـربيـة الأخـرى.. فـالولايات المتـحـدة وإسـرائيل لهـمـا مطامع ومشروعات فى الدول العربية الأخـرى، تتعلق بالبترول من ناحية، وبإنشـاء عـلاقـات بين إسـرائيل وهذه الدول من ناحـيـة أخـرى، وبتوسيع دائرة الانفتاح الاقتصادى لتشمل المنطقة العربية كلها من ناحية ثالثـة، وكان لابد لمصر (فى نظر أمريكـا وإسرائيل) أن تقدم خدمـاتها لهما فى كل هـذه المجالات، وقد كان.. فـإذا بهذه الدولة العربية أو تلك تكتـشف بالتدريج "ومازالت تكتشف" كـيف فقدت مصر كزعـيمة وشقيقـة كبرى، وكحكم فيمـا ينشأ من نزاعات بين دولة عربـية وأخرى، وأن تكتـشف كيف أصـبحت الدولة المـصرية رخوة فـى علاقاتـها ببـقية الـعرب مثـلما أصـبحت فى عـلاقتـها بالولايات المتحدة وإسرائيل، وفى علاقتها برأس المال الأجنبى!!

....

ويفـترض الدكـتـور أسامـة الغزالـى حرب ـ مـركز الدراسـات السيـاسية والاسـتـراتيجيـة بالأهرام ـ أن إقرار السلام بين مـصر وإسرائيل، ربما أدى إلى سيادة الشعور بافـتقاد أو انعدام التحدى، وبالتـالى سـيـادة حـالة من الاسـتـرخـاء والتـرهل؟ ويغـذى هذا الافتراض حـقيقة أن أقـصى فترات "الحشـد" السياسـى والتعـبئة المجتـمعية فى مـصر، منذ الخمسـينيات، إنما اقترنت ـ أسـاسا ـ بمواجهـة العدو الخـارجى، وإسرائيل تحـديدا، حدث هذا فى فـترة "أزمـة السويس" عـامى ١٩٥٦ و١٩٥٧.. ولكنه وصل إلى ذروته فى أعقاب هزيمـة ١٩٦٧ وبدء العمل من أجل "إزالة آثار العدوان" ولا شك أن الفـتـرة بيـن ١٩٦٧ و١٩٧٣ (خـاصـة بين ٦٧ و٧٠) كانت من أكـثر الفـترات حيـوية وجدية لدى الدولة المصـرية، بكل مؤسـساتهـا، مثلمـا كانت فـترة توهج وتـيقظ للحـركة الشـعبـية الجماهيرية فى مصر. وربما يلفت النظر أيضا أن الحشد السياسى والشعبى لبناء السد العالى فى الستينيات، والحماس الجارف الذى

رافقه، إنما ارتبط باعتبار ذلك البناء "معركة" وتحديا ضد قوى خارجية، تمثلت فى الولايات المتحدة وقوى الاستعمار الغربى.. والمفارقة اللافتة هنا - إذا صح هذا الافتراض - أن حالة السلام التى نعمت بها مصر، وسلامة أرضها من دنس أى احتلال أجنبى، وإنهاء انشغالها بالمواجهات أو المغامرات العسكرية - لم تؤد إلى ما كان مفترضا من إتاحة الفرصة للتنمية الاقتصادية الجادة والشاملة، وجذب الاستثمار العربى والأوروبى.. إلخ.

....

ويرى المفكر الكبير الدكتور أنور عبدالملك أن "كامب ديفيد" هى التى قادتنا إلى ما نحن فيه فى السياسة كما فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة وكافة شئون الحياة.. ويقول: مصر حضارة عمرها سبعة آلاف سنة، يجرى فيها نيل، وبفضل النيل هناك زراعة وبفضل الزراعة وجد الاستقرار وعاش الناس، كانت هذه بتبسيط شديد حياة المصريين، الذين حرصوا دائما على تحقيق استقرارهم واستقلالهم، وهو ما تبدى فى صورة حديثة فى محاولات طلعت حرب تمصير الاقتصاد الوطنى ومحاولات تأسيس قطاع عام قوى فى عهد عبدالناصر، ذلك كله انتهى، لأن كامب ديفيد لم تكن فقط لها نتائج سياسية، لكنها أيضا دمرت الاقتصاد الوطنى، وحدث ضعف متزايد للدولة المصرية، للنظام الاجتماعى والسياسى، كأنك فى سفينة أصابتها العواصف وهى فى عرض البحر..

وعلى صعيد آخر فإن التطورات التى جرت فى العالم من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية، تؤكد صحوة قومية لم تكن فى الحسبان، أنظر إلى الصين، اليابان، الهند، كوريا، دول أمريكا اللاتينية، وهو ما يدفع إلى القول أن ما يحكم الصراع اليوم هو صحوة الصراع على مستوى عالمى ضد الاستعمار والهيمنة، وبالتالى ما يتردد عن أن العالم اليوم قرية واحدة وأن القوميات

انتهت ليس سوى أكذوبة كبرى، كلام تردده عصابات الفكر الصهيوني، فالعالم كله الآن تتصاعد فيه صحوة تنادى بأولوية الأمة والقومية، والدولة، وليس التنظيمات عبر القارية، هذا الموضوع غائب عنا فى مصر منذ كامب ديفيد.. بينما الواقع يؤكد أن التاريخ التقليدى أى تاريخ النظام العالمى القائم منذ القرن السادس عشر حول غرب أوروبا ثم أمريكا مركزا، دخل فى مرحلة الأفول، هذا بينما تعيش شعوب العالم وأممه ودوله الوطنية، وثقافاته صحوة كبرى، خاصة فى دائرة الشرق الحضارى حول آسيا الشرقية والصين مركزا..

والدكتور أنور عبدالملك يلفت الانتباه إلى تراجع دور مصر باتجاه الشرق ورغم أن التوجه إلى الشرق بدأ فى مصر مع بدايات القرن العشرين لكنه أخذ شكله المحدد مع مؤتمر "باندونج" فى أواسط الخمسينيات، هذا المؤتمر الذى شهد اجتماع زعماء دول الشرق لأول مرة منذ أجيال طويلة يعلنون فيه عن وجودهم، وأهم الدول التى اجتمعت آنذاك كانت الصين، الهند، مصر، إندونيسيا، وغيرها، وكان لمصر دور أساسى ومهم، وقد لفت جمال عبدالناصر نظر رئيس الوزراء الصينى "شواين لاى" لصمته واهتمامه بالتساؤل وبتسجيل الملاحظات أكثر من شغفه بإبداء آراء. بعد ذلك بدأ الاتجاه إلى دول عدم الانحياز أو ما يمكن أن نسميه جبهة عالمية للشعوب المضطهدة..واليوم أصبح الشرق باعتراف الجميع هو مركز التحرك العالمى الجديد، وانتقل مركز الثقل من الأطلنطى إلى دول الشرق.. والغريب أن المتخلف عن هذه التحولات الجديدة هى مصر، وهى التى شاركت فى هذه الدعوة بشكل أساسى، لأنه بعد معاهدة "كامب ديفيد" قبلت أن تخضع للحصار، وأنا لا أدعو إلى قطيعة مع الغرب، لكننى أدعو إلى أن نغلب مصلحة مصر فى كل ما نختار، والحقيقة أنا أحيى جهود الرئيس مبارك فى توجهه إلى فتح أبواب جديدة تبدت فى زيارته الأخيرة

إلى الصين وكازاخستان وروسيا.

....

وهناك عامل آخر يراه المفكر والخبير الاستراتيجي نبيل عبدالفتاح - بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - في تآكل الموروث الحداثي.. وأن مصر عاشت على فائض مواريث الحداثة من الخبرات والتقاليد والهندسات الدستورية والسياسية والقضائية والإبداعية في مناخ عديدة، ومما شكل خمائر الدفع الأساسية لنظام يوليو.. والمصريون على الأقل بالنسبة للفئات الأكثر شعبية كانوا على استعداد أن يعطوا شرعية ما للنخبة الجديدة، في إطار دعم مشروعها الإقليمي الكبير، وأيضا مساندة لفكرة العدالة الاجتماعية وأن يكون لمصر وزن وثقل إقليمي ودولي مع حركة عدم الانحياز.. وفي حقيقة الأمر فإن الذي ساهم في بدء التآكل التدريجي للدولة هو أولا الصراع العربي الإسرائيلي الذي استخدم شعارا لقمع الحريات العامة والفردية، فضلا عن أن هذا الصراع كان مصدرا من مصادر شرعية النظام المصري وعديد من النظم العربية الأخرى، وبالتالي ظل هذا التحدي الخارجي "فزاعة" لقمع حريات الرأي والتعبير في أكثر من بلد عربي، والذي حدث بعد ذلك كان دراميا، إذ في ضوء هذا الصخب واسع النطاق عند بناء دولة ناصرية ثم بناء الدولة الساداتية، والجدالات الكبيرة التي جرت حول هذه المشاريع لم ير أحد أن الإرث الحداثي المصري يتآكل وبسرعة..

ومن الأسباب الرئيسية لتآكل هذا الموروث الحداثي هو هذا الخلط بين الحقول في مصر وتحديدا بين الحقل الديني والحقل السياسي، وبين الحقل الأمني والحقل السياسي.. والصراع الذي تم بين الإخوان المسلمين وعبدالناصر جعله يدرك بسبب تكوينه الديني والثقافي وتأثره، بالإمام محمد عبده وخالد محمد خالد، أن الدين أخطر من أن يترك في أيدي جماعة سياسية وأن الدولة عليها أن

تؤممه، فكان أول تأميم فى يوليو ١٩٥٢ هو تأميم الإسلام والأرثوذكسية المصرية معا، وساعد على تأميم الأرثوذكسية المصرية، العلاقة الخاصة التى ربطت بين قداسة البابا كيلرولوس والرئيس عبدالناصر، وتأكد منذ ذلك التاريخ أن الدين ضمن احتكارات الدولة، وربما كان ذلك فى شكل من أشكال استعارة تجربة محمد على وهو يؤسس للدولة المصرية الحديثة فى بواكيرها الأولى، وحين قرر أن الأزهر لا ينبغى أن يترك لأحد، وأن طبقة علماء الأزهر لا ينبغى قط أن تكون لها مواردها الخاصة، ومن ثم سعى إلى تصفية الأساس الاجتماعى لعلماء الأزهر حتى يكونوا أداة فى أيدى الدولة، فقد كان أغلبهم ملتزمين، فعمد هو إلى تصفية نظام الالتزام، فأصبحوا يعتمدون فى مواردهم بدءا من شيخ الأزهر إلى أصغر مجاور بالأزهر على الدولة.. وفى ظل الدولة شبه الليبرالية كان مصطفى النحاس باشا هو الأكثر وضوحا من حيث انحيازه للحداثة السياسية والعقلانية، وكان حاسما فى عدم الخلط بين الدين والدولة.. والخلط الذى جرى فى أعقاب يوليو ٥٢، جعل من الدين أداة سياسية وفى ظل تقاليد غير ديمقراطية، يكون الدين إحدى أدوات السيطرة لأن الدين والقمع مولدان كبيران للخوف والتأييد..وعبدالناصر استخدم الدين بمنطق أكثر استنارة من لاحقيه، فقد استخدمه فى التعبئة وعمليات الانتقال التى تمت من المشروع الخاص إلى المشروع العام، ثم فى سياساته الإقليمية ودور مصر المحورى فى المنطقة وفى حركة عدم الانحياز..

ويقول الدكتور نبيل عبدالفتاح أن تداعيات هذا التآكل للدولة الحداثية إقليميا وتأثيره على تراجع الدور المصرى، كان واضحا فى مناسبات عديدة، فليس بعيدا عن ما نشاهده من تراجع للدور المصرى فى ظل تمدد وهيمنة الدور الإقليمى الإيرانى الذى تواجهه أدوار لدول أخرى بينها إسرائيل مصدر التهديد الرئيسى فى

المنطقة، ثم الدور التركى، ثم الدور السعودى الذى استعاد دبلوماسية الشيكات بسبب تراجع أدوار الآخرين، فالدور الإقليمى السعودى صعد مع ارتفاع أسعار النفط فى ضوء أزمة الخليج الثالثة بدرجة كبيرة، ٦٠ مليار دولار عام ٢٠٠٤ فائض مالى، ارتفع إلى ٧٥ مليارا سنة ٢٠٠٥، ١٠٠ مليار دولار سنة ٢٠٠٦، وبمليار دولار واحد جاءت السعودية بالفلسطينيين إلى مائدة التفاوض وللتوقيع على حل فى الرياض، بينما بذل المصريون جهدا كبيرا طوال سنوات ولم يحققوا أى نتيجة.. هذا شكل من أشكال تآكل الدور بفعل تآكل الدولة الحداثية.

....

....

وربما كانت هذه الأسباب - أو غيرها - وهى موضوعات كبيرة الأهمية، لها تأثيرها المباشر والقوى على الدولة القائد فى المنطقة العربية وعلى حركة الدور المصرى.. ولكن ليس معنى هذا أن نبالغ فى التشخيص وإلى تلك الدرجة من التوصيف التى تصل إلى تعبير لتآكل أو تراجع وغياب الدور الذى يملك قوة الحركة الذاتية ومهما كانت التحديات والعقبات على الطريق!! وأتصور أن طرح الأسباب أو التفسيرات أو حتى التساؤلات عن حركة الدور المصرى قد تقف وراءها النوايا الطيبة - على الأقل - لكى يتصل الدور ولا يتعطل.. ولكن لا نبالغ فى اللوم وقد يصل - دون قصد - إلى حملة تشكيك مخيفة فى دور مصر، وهناك بالطبع من ينتظر هذه الفرصة!!

وحتى لا أعمم خالطا بين النوايا، فإن هناك بعض هذه التصورات حول دور مصر، تكسر قواعد استقرت عليها حقائق وأحكام التاريخ: وهى أن مصر بالدرجة الأولى دور، وهذا الدور يستند إلى قواعد تأسيس ومواريث تاريخية وحضارية وإنسانية، ولا يحتاج إلى صيحة تنبيه أو إلهام توقظ حركته.. وأن مصر -

الدولة القائد ـ تستمد تأثيرها من دورها، وتستمد قوتها بالانتماء أو بالاستناد إلى قاعدة عروبتها، وأن الموقع الجغرافى لمصر ـ وبخصوصية عبقرية المكان ـ يفرض على دور مصر أن يكون متأثرا بما يجرى فى الوطن العربى، مشدودا إلى المشاركة فيما يجرى على اتساعه.. ولا مجال أمام الدور المصرى أو الدولة القائد للتراجع أو الغياب وطالما أن هذا الدور قدر تاريخي.. وبهذه الحقائق فإن مصر سيبقى لها الدور الحاسم، وهو دور ريادى ومهم فى الإقليم ـ كما يقول الأمير الحسن بن طلال ولى عهد المملكة الأردنية الهاشمية السابق ورئيس منتدى الفكر العربى ـ ورؤيته أن دور مصر لم يتراجع فى المنطقة، وليس صحيحا قصور دورها الإقليمي، ولكن عندما نتحدث عن التدخل الخارجي فى جملة أزمات بالمنطقة، من أفغانستان مرورا بلبنان وفلسطين والعراق وإيران والسودان، فإنه يستحيل للعرب بصفة عامة، ولمصر بصفة خاصة القيام بدور من دون تفاهم واضح على أهمية التشاور فى الرؤى كافة..

وبرؤية الأمير الحسن بن طلال فإن الرهان على الدور المصرى ليس رهانا على المجهول، ولكنه رهان على القدر التاريخي لمصر، ورهان على أحكام الجغرافيا والتاريخ، بل ورهان على كل ما هو إنسانى وحضارى وتاريخي.. ولذلك فإن الأمة الشاعرة بوطأة الأزمات تطبق عليها من كل ناحية تبحث بالدرجة الأولى عن حركة الدور المصرى، تطمئن إليه، وتقيم مستقبلها فى أمانة.

ويبقى مع ذلك.. أن الدور المصرى معرض لتأثيرات سالبة لبعض جوانب حركته تحت ضغط الأجواء المشحونة بالتوتر ومزدحمة بالشك فى المنطقة، ومما يهدر الجزء الأكبر من جهده فى قضايا ومشاكل ونزاعات وأحيانا "حكايات" عربية غير مسئولة لا تتسق مع تطورات الزمن الجارى.. وفى جانب كبير من هذه الصورة يرى البعض أن أداء الدور المصرى ليس مرضيا..

وهناك حقيقة أخيرة.. وهى أن الحديث ولو بصيغة التساؤل عن الدور المصرى.. ودور الدولة القائد فى المنطقة.. يتجاهل حجم التحديات أمام هذا الدور - وربما كانت غير مسبوقة فى التاريخ من حيث تزامن حركتها دوليا وإقليميا وعربيا.. فهناك أنواع مستجدة من العلاقات والتحالفات حرجة وخطرة.. وهناك حركة الأفكار والتجارب فى المنطقة.. وهناك حركة الصراعات الدولية - سياسية واقتصادية - وتجرى مقدمة مشاهدها على المنطقة العربية.. وهناك تحركات دول على أطراف العالم العربى تسعى إلى دور إقليمى مؤثر.. وهناك طبيعة التحدى الإسرائيلى وحالة التخبط التى سبقت إليها أزمة الشرق الأوسط.. وهناك حركة النزاعات والخلافات العربية - العربية، وهى حركة على كف عفريت من الجن لا يعرف أحد متى تبدأ وكيف تنتهى.. وهناك بصفة عامة أوضاعا عربية غير مستقرة مع تشتت المواقف وأحيانا تصادمها، وهى بالضرورة قد أثقلت على حركة الدور المصرى.. ولكنه لم يتراجع.

□□□□

كلمة ختام

على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء
انا مصر عندي احب واجمل الاشياء
باحبها وهي مالكة الارض شرق وغرب
وباحبها وهي مرمية جريحة حرب
باحبها بعنف وبرقة وعلى استحياء
واكرهها والعن ابوها بعشق زي الداء
واسيبها واطفش في درب وتبقى هيّ ف درب
وتلتفت تلاقيني جنبها في الكرب
والنبض ينفض عروقي بالف نغمة وضرب
على اسم مصر
صلاح جاهين

ماذا بقي؟ وماذا أقول؟

هناك الكثير بالطبع وهو فوق طاقتي المحدودة.. ولكن.. لعلي أضيف إلى كل ما سبق.. أن هذا الكتاب كان مجرد محاولة للرد على سؤال أثار الحديث الذي احتدم حول دور مصر.. وبصرف النظر عن كل ما قيل ويقال، وبصرف النظر عن حقيقة النوايا وراء كل هذا، فإن هناك خلطا شديدا بين مفهوم الدور، وبين حركة هذا الدور، تحركاته واتجاهات هذه التحركات، هل انحرفت عن مسارها الصحيح والمتوقع؟! هل تراجعت؟! هل تعطلت؟! أو قل ما شئت من توصيفات!! وهناك خلط في الحديث عن دور دولة ما، وبرؤية قاصرة إلى جانب واحد من جوانب حركة الدور، وسواء على مستوى الفعل السياسي، أو على مستوى التأثير الثقافي والاجتماعي، أو على مستوى القوة العسكرية والردع بها مثلا.. وهكذا.

وما يعنيني كان الفرق بين الحديث عن دور مصر - تحديدا - ودور أية دولة أخرى سواء كانت من دول المستوى الأول، أو دول المستوى الثالث النامي أو المتخلف، وما بينهما من دول صاعدة تريد أن تلحق بعالم الدول الكبرى.. فمصر كيان بالغ الخصوصية وبأحكام التاريخ والجغرافية والتي هي أعقد بكثير وأصعب من أن يتم التحلل منها، وهناك قواعد تأسيس للدور المصري جعلت منه أشبه بالقدر المكتوب على مصر.. ثم أن مصر لا تستطيع أن تخرج من دائرة دورها، لأن هذا يعني خروجها من دائرة التاريخ وحركته.. ولذلك فإن المواقف أو التحركات السياسية التي يراها البعض تعبيرا عن تراجع الدور المصري، ليست دليلا على أن القصور في الدور، وإنما في إدارة حركة هذا الدور. وإذا كانت هذه التحركات وردود الفعل قد تكشف في ظاهرها ترهل أو تشتت الأفكار أو تراجع المواقف، ولكنها بالضرورة لا تكشف القدرات الحقيقية للدور.

.....

وكنت أريد أن ألفت الانتباه إلى أخطاء في التقييم وحين نضع رد الفعل المصري تجاه حدث ما، أو أزمة ما - وما أكثر الأزمات والقضايا فوق ساحتنا العربية - معيارا للحكم على دور مصر بمعناه الأشمل والأوسع!!

والحاصل فإن رؤية صناع القرار قد تتأثر بما يحجب الرؤية السليمة ويحجب التقدير الصحيح للحسابات، وقد تتأثر هذه الرؤية بأمزجة ومصلحة الأنظمة الحاكمة.. ولكن الأنظمة سوف تذهب إلى ملفات التاريخ، والذي يبقى دائما هو دور مصر.. ثم أن ردود الفعل أو حركة الدور قد تكون وفقا لما هو متاح من القدرات والطاقات - وفي لحظة تاريخية ما - ولكن يظل دائما ذلك الإدراك العميق بجوهر الدور المصري وأبعاده..

وعلى أية حال فقد سادت الأجواء العربية قناعة بأن حالة الغياب والتخلخل والانهيار عربيا، مرتبطة بمصر، لأنه لابد أن يكون هناك محور تدور حوله الحركة، ومع تراجع المحور عن أداء دوره، فإن هناك خلخلة في أداء كل حركة داخل الإقليم العربي، وأن الأمل غالب على اليأس أن تنجح مصر في أن تضع نفسها في موضعها الصحيح تاريخيا وتؤدي دورها!! وهذه القناعة ورغم ما تستند إليه من أهمية دور المحور.. دور الدولة القائد في المنطقة.. إلا أنها تحمل قدرا من مشاعر القلق، وربما الحيرة، حول غياب دور مصر.. الكل يلف ويدور حول غياب الدور، ودون تحديد لجوانب الغياب.. وفي حقيقة الأمر لا يستطيع أحد أن يقرر غياب الدور، ولكن يستطيع أن يطرح عدم اقتناعه بحركة هذا الدور وفقا للظروف والتوازنات الإقليمية والمحلية.. ويبدو واضحا - مرة أخرى - عدم الوعي بأهمية الفرق بين جوهر الدور وأبعاده وقدراته، وبين إدارة حركة هذا الدور، وعدم الوعي هنا لم يخلق فقط سوء الفهم، ولكن خلق ما هو أسوأ، وهو التشكيك في دور مصر، حتى تصورت دول عربية - بعينها - أنها يمكن أن تلعب هذا الدور، وهي لا تدرك - حتما - أنها لا تملك قواعد التأسيس والميراث الحضاري والإنساني الذي جعل لدور مصر خصوصية متفردة..

وعموما.. أريد أن أكون منصفا مع الواقع ومع الحقيقة.

أن دور مصر الثقافي والاجتماعي لم يعد كما كان رائدا ومؤثرا وخالقا.. وأن هناك بالفعل حالة (غير طبيعية) تخيم على مجالات الإبداع المصري، ولا تتسق مع تاريخ ومسار الدور المصري، وهي حالة أجاد

التعبير عنها العرض المسرحي " قهوة سادة " من خلال مشاهد متتالية وساخرة لحياتنا الحالية، تكشف عمق التغيير والتبديل الذي نتعرض له، والذي يستدعي شرب " قهوة سادة " حزنا على أشياء كثيرة ضاعت وتضيع!! ويبدأ العرض بمجموعات تتوافد إلى مكان رملي وهم يحملون أشياء من الزمن المصري الماضي، راديو ضخما، مطحنة بن، ساعة حائط، تحفة فضية، والكثير جدا من صور النجوم الراحلين في كل ميادين العلم والأدب والفن المصري، وبحزن يصل إلى حد البكاء يغرزون الأشياء والصور في الرمل كما لو كانوا يدفنونها، ويستديرون كي يأتي آخرون يحملون صور العقاد، وطه حسين، ونجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وعبدالوهاب وأم كلثوم، وطلعت حرب، ومصطفى مشرفة، وليلى مراد ومحمد فوزي وعبدالحليم حافظ، في مشهد مهيب يثير الشجن ويلفت الانتباه إلى أن العصر الذهبي المصري للفن والأدب والعلم كاد أن يصبح في خبر كان، ويطرح العرض المسرحي فكرة أن علينا أن نجدد مثله، وأن يكون لدينا طهطاوي جديد، وعبدالله النديم، والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل، وقاسم أمين، والمازني، والمنفلوطي، وسلامة موسى، ولويس عوض، وصلاح جاهين، وكمال الطويل، وعبدالحليم حافظ.. وأن من يملك هذا التاريخ في الفن والعلم والأدب والأخلاق يمكنه أن يملك الحاضر والمستقبل إذا أراد..

وللإنصاف أيضا فإن حقائق القوة وحدها وموازينها في ظرف ما هي التي تتولى صياغة رد الفعل ولو جاء غير متسقا مع مسئوليات الدور. وأن مصر - وفي ظروف طارئة - حاولت أن تشفق على نفسها من مسئوليات الدور، وهي رؤية طرحها في منتصف السبعينيات - تقريبا - شاه إيران محمد رضا بهلوي على الرئيس المصري الراحل أنور السادات، ونصيحة الشاه - المشكوك في نواياها - تقول بأن الصراعات في المنطقة العربية كلفت مصر أكثر مما تطيق، وأنه قد حان الوقت لكي تلتفت مصر لنفسها، وتنصرف إلى شئونها الخاصة!! وفي تلك السنوات انطلق شعار " مصر أولا " ودار الجدل خلالها حول عروبة مصر، وانتمائها العربي!!

وصحيح أن أحوالنا كانت تشغلنا، ولكن هذا لا يعني أن مصر كانت بعيدة عن أزمات العالم العربي، أو أنها سعت للانشقاق على حقائق عروبة مصر، ومصلحة مصر العربية، وأمن مصر العربي.. والشاهد أن مصر التي تصدرت قيادة الأمة العربية، واستطاعت أن تصل إلى إزاحة الاستعمار من كل الأراضي العربية، واستطاعت أن تهيئ الظروف التي مكنت من تحرير موارد وثروات الأمة، وساعدت على فتح الطريق أمام حركة التطور - كان هذا دورها، وتحملت مسئوليات الدور. ولا أتصور أن مصر تراجعت عن هذه المسئوليات الكبرى لدورها، ولن تستطيع التخلي عن هذا الدور الذي كان - ونكرر - أشبه بالقدر المكتوب عليها.

......

وألخص ما أريد أن أقوله:

لابد أن تكون الحقائق واضحة.. وأولى الحقائق: أن الجغرافية والتاريخ معا، والتجارب والمواريث الحضارية لقرون طويلة، فرضت أو حددت، دور مصر.. ولا يمكن الرهان عليه، ولا يمكن لختصاره في بعض جوانب حركة هذا الدور. والحقيقة الثانية: أن حركة دور مصر قد تعتريها - وفي ظرف ما - حالة رجوع إلى الداخل نسبياً وليس تراجعا عن مسئوليات الدور. والحقيقة الثالثة: أن الحديث عن تراجع هذه الحركة (وليس الدور بالطبع) هو تفكير لا يأخذ في تقديره الأوضاع الداخلية والعربية التي أثقلت على حركة الدور - وفي ظروف طارئة أحيانا - ومنها قضايا التنمية الاقتصادية، وقضايا التطور الاجتماعي، وغيرها من القضايا الداخلية وحتى في مجال الخدمات العادية.. وأثقلت على حركة الدور أيضا الأوضاع المتردية سياسيا داخل العالم العربي والذي تتزاحم فوقه الظلال والألوان، إلى جانب الأخطاء التي ترتكبها أطراف عربية.

وكان ذلك تأثير واقع الحال على حركة الدور، وربما ساعدت عليه عوامل إضافية..

□□□□

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٠ / ٢٤٤٩٩



هذا الكتاب

• الحديث عن دور مصر يطرح تصورات حول تراجع أو غياب أو تعطيل هذا الدور وتصور الغياب أو التراجع يوازي تماما تصور غياب أو تراجع مصر عن جغرافية موقعها وعن تاريخها وعن تراثها الإنساني والحضاري وعن ضرورات أمنها ومقتضيات مصلحتها , وذلك غير ممكن وغير محتمل.

• دور مصر يرتبط بحقائق تمتد جذورها القوية في أعماق التاريخ ومنذ انفراد الشعب المصري ودون غيره من شعوب العالم القديم بالسيطرة على عالم المادة وبنى صرحا من المدنية المادية يعجز الزمن عن محوه .

• لا يمكن نزع القداسة عن هذا الدور , ولأمر ما قدر الله سبحانه وتعالى للمصطفين من أنبيائه ورسله أن يتجهوا إلى مصر ويقيموا فيها ما شاء لهم أن يقيموا.

• ويبقى دور جمال عبد الناصر رقما بارزا وكاشفا لدور الفرد التاريخي من حيث الالتحام والتوحد مع دور مصر , ومن حيث معايشته لضرورات وأحكام هذا الدور .

الغلاف للفنان عصام حنفي